

قواعد الأديان

تأليف

شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد
ابن عبد الحليم الشيباني تيمم
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

دراسة وتحقيق

إبراهيم محمد الجمل

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر

الطبعة الأولى

١٩٨٩ م

١٤١٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم دراسة وتقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونسترضيه ونستغفره ونعوذ به من شرور
أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

ونصلي ونسلم على رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيد
الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، نبي
الهدى والسلام نبي الرحمة والمودة . . . وعلى آله وصحبه وأتباعه وذريته
وآل بيته أجمعين . . .

أما بعد / . . .

فمازلنا وسنزال متعطشين للنيل من منابع العلم ، ومازالت أمتنا
الإسلامية المعاصرة وستزال دائماً تفتقد المنهج القويم لحياة يحلم بها
الطيون والمفكرون وأولو البصائر منهم . .

ذلك بعد أن دهمتهم عضات الزمان ، وقصور تفكير الإنسان
وإحداث العاهات والعاهات على وجه المعمورة .

ولهذه الحاجة الماسة إلى العلوم فإننا نفخر أن نقدم لهم عالماً عرفوه بل
وعايشوه ومنهم من حاربه . . ولكن ليس عالمنا ككل العلماء بل إنه نوع
رفيع فريد متميز . . .

نقدمه سيراً على الدرب ومحاولة من محاولات باحث لعل الله أن يحدث
بعد ذلك أمراً .

التصوف . . . وموقف ابن تيمية :

الحق أن ابن تيمية ركز هجومه على المدارس التي ظهر فيها إيهام
الحلول والاتحاد كمدرسة ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض

والحلاج . وقد تتبع ابن تيمية الأفكار التي أثرت في الحلاج من معاصريه أو من قريبي العهد من عصره كابن بسكويه (٣٦٩) هـ والحافظ البغدادي (٤٦٣) هـ وابن الجوزي (٥٩٧) . وأثبت باطنية الحلاج وادعاءاته الباطلة مثل فتوة إبليس ، وبما جرى على لسانه من قوله « أنا الحق » وهاجم اعتذار الصوفية عن الحلاج ، وكشف أن الحلاج حاول خداعهم بمثل قوله « عليك بنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » .

ولم يكن ابن تيمية يصدر عن فكره المجرد في قضية الحلاج بل إنه حَكَمَ الشرع في أمره حيث حاول أن يسقط ركن الحج من الإسلام .
والواقع أن هذا بين الصوفية والسلفية مازال قائماً في حدته إلى الآن ولكنه في عصرنا لا يتخذ صفة البحث الدقيق الهادف بقدر ما يتخذ صفة الرفض الكلي أو القبول الكلي . . . فالسلفيون يرفضون كل ما يندرج تحت كلمة التصوف من سلوكيات حتى ولو كانت سلفية شكلاً وموضوعاً ، والصوفية يرفضون إعادة النظر في موروثاتهم ، وفي الوقت نفسه يدعون أنهم سلفيون قائمون بالكتاب والسنة .



كان التصوف يسيطر على العامة في عصر ابن تيمية بما فيه من خرافات وانحرافات وأوهام فجرد ابن تيمية ، عليه سيف الدليل وناقشه بالحساب ، وكان الشيعة يتغلغون في الربوع الإسلامية يبثون فيها أقوالاً مخالفة لما تقرر لدى السلف ومنهم من اعتصم بالجبال ، فتجرد لهم أيضاً ابن تيمية لمنازلة هؤلاء بالدليل الملزم وبالسيف القاطع .

الحق أن ابن تيمية وقع قلبه وعقله تحت تأثير الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وأقضيتهم وفتاويهم ، وكل ما أثر عنهم من آراء ، فهو يعيش في جوهم ويخلق في سمائهم ، فإذا نظر إلى الوجود وجد آراء تخالف ما كان عليه أولئك العلية السابقون وتخالف ما جاء به رسول الله ﷺ ،

فيصدع في الناس بأمر ربه ، ويناديهم بإحياء السنة النبوية ، واتباع الآثار السلفية ، فتكون المعركة بينه وبينهم ، أو تكون بين التقليد للمشايخ والاتباع المجرد ، وفي هذه المعركة يبدو ابن تيمية متمسكاً بالعروة الوثقى يشمخ ويشند ، ويقول ما يعتقد ، لا يخشى في الله لومة لائم ، ويسجل ما يدعو إليه في كتب ينشرها ، ورسائل يرسلها ومامن رأى ارتأه أو فكرة دونها ألا كانت في وسط تلك المعارك أو صدى لها ومن أجل هذا جاءت رسائله وكتبه حارة شديدة العبارة قوية المنزع ^(١) فلم يكن الشيخ إلا محارباً للفساد والأهوال مسانداً للحق ناشراً له ، لم يحارب المتصوفة بل حارب جهلهم بالكتاب والسنة وتقليدهم الأعمى دون نظر أو تفكر .

بين افتراءات .. وإنصاف :

عاش الإمام ابن تيمية في عصر تبدلت فيه أحوال الأمة الإسلامية فكراً وسلوكاً ، وكان ذلك منذ أن بعدت عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وبذلك تخلفت عن الدور القيادي الذي قدره الله لها ، وأمرها بأن تسير إليه عن طريق الجهاد .. وكان أن أخذت الأمة من فكر غيرها مما لا يحكمه كتاب ولا سنة بقدر ما تركت من هذين المصدرين الرئيسيين في شرعة الإسلام .



كان المرض الذي أصاب الأمة هو الزيف الفكري ، والابتداع فوق ما شرع الله وسنة رسوله ، وقد أدى هذا الابتداع الزائف إلى صراع مريع بين دعاة الإصلاح عن طريق العودة إلى سلوك السلف من الصحابة والتابعين وبين أولئك الذين أعطوا أنفسهم حق الإضافة والحذف

(١) ابن تيمية للشيخ محمد أبي زهرة (٢٠٩) ط دار الفكر العربي .

كما يحلو لهم ، وفيما ليس لهم فيه حق ، واقتضى هذا الصراع ظهور مدارس متعددة تدور حول العقيدة والسلوك وهما حركة الإسلام .. وكان أبين هذه المعارك وأظهرها صحبات شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن الثامن الهجرى في وجه التصوف والصوفية إذ حمله ابن تيمية تبعة كثير من مظاهر الفساد فى الأفكار والابتداع فى السلوك .

ولئن كان الحوار بين ابن تيمية وخصومه ساخناً وحاداً ولاذعاً باعتبار أن ابن تيمية كان يمثل الهجوم الذى يعنى بيان الحق وتمييزه عن الباطل ، ومع ذلك فلم يمنع ذلك ابن تيمية من أن يشيد بالصوفية الذين يتمسكون بالكتاب والسنة كما لم يمنع خصومه ذلك من أن يوافقوه على هجماته على بعض الصوفية فى عصره .

ومن يدمن مطالعة مؤلفات ابن تيمية يمكنه أن يدرك بسهولة أنه كان يميل إلى الزهاد الأوائل ، ويمدح شيوخ التصوف المشروع ، وفى الوقت نفسه كان ينعى على ابن عربى وأتباعه ، ويربط بين الإشراقية والصائبة .

ولقد رمى شيخ الإسلام بالغلظة وتحجر القلب من جانب الصوفية ، والحق أنه لم يكن غليظ القلب ولا متحجراً ، ولكن طبيعة الحوار الساخن الذى دار بينه وبين خصومه وهو يدعو إلى وحدة الفكر والسلوك تحت لواء السلفية قد غطى على كثير من جوانب الرقة والروحانية فى شخصيته ، بل إنه كان يفيض رقة حين كان يأوى إلى المساجد المهجورة يناجى ربه أن يفتح عليه مغاليق الفكر فى مسألة أهمته قائلاً « يامعلم إبراهيم علمنى » ..

وإن كان كثير من المسلمين لم ينصفوا الرجل ، فقد أنصفه علماء الغرب ومفكروهم وباحثوهم ووضعوه فى مكانه المناسب .. والرجل لم نشهد مثله إلا قليلاً من رجالات العلم وأصحاب الفهم .

العبقرية عند ابن تيمية :

كانت لابن تيمية صفات أهله ليكون عبقرية من عباقرة التاريخ ومن

هذه الصفات :-

١ - حافظة قوية : قال في الكواكب الدرية « ومن أعجب الأشياء

أنه لما سجن صنف كتباً كثيرة ، وذكر فيها الأحاديث والآثار ، وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم ، وعزو كل شيء من ذلك إلى ناقله وقائله ، وذكر أسماء الكتب التي ذكر ذلك فيها ، وفي أي موضع هو فيها : كل ذلك بديهية من حفظه : لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ، ونقبت واختبرت فلم يوجد بحمد الله فيها خلل ولا تغيير » ^(١) أ . ه .

٢ - سعة العقل والتأمل : « وكان رضى الله عنه يدرس المسائل

متعمقاً فيها ، بل ربما قضى الليالي متفكراً في مسألة واحدة حتى يحل مغلقها ، وينتهي إلى الأمر الجازم فيها ، وكان يتأمل الآيات والأحاديث وقضايا العقل ، ويوازن ويقايس بفكر مستقيم حتى ينبلج له الحق واضحاً ، ولذلك كان من أدق العلماء وأقدرهم على استنباط المعانى من الأحاديث وآيات القرآن الكريم » ^(٢) .

٣ - حضور البديهة . . فقد قال أحد تلاميذه أبو حفص البزار :

« كان ابن تيمية إذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق وختم ونقول العلماء . . واستشهاداً بأفكار العرب ، وهو مع ذلك يجرى كما يجرى التيار ويفيض كما يفيض البحر » .

(١) (١٥٥) ضمن مجموعة .

(٢) ابن تيمية للشيخ أبى زهرة (١٩٧) .

والبدية الحاضرة بالنسبة للخطيب والمناظر كأدوات الحرب السريعة للمقاتل ، وتصيب المقاتل ، وتقطع مفاصل القول ، وتربك الخصم حينئذ بما لا يتوقع ما يلطب فيه الجواب ، وليس عنده ذلك السلاح فيتردى ، أو يخرج من الميدان مهزوماً مدحوراً .

ولهذه الصفة كان خصوم ابن تيمية يتهيبون لقاءه ، ومن لا يعرفها فيه ، ويغتر بحجته إذا لقيه كان عبرة المعتبرين ، فيلقمه العالم الجليل الحجة ، وما انتصر عليه أحد في ميدان القول ، وما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من محنة في مصر ، أو في الشام في آخر حياته إلا بالتدبير ليلاً والاجتهاد في ألا يسمع قوله ، ولو سمع قوله ما استطاعوا له كيدا .

٤ - الاستقلال الفكرى : ولعل هذه الصفة هى أبرز الصفات فى تكون علمه وشخصيته العلمية التى جعلت له مزايا خاصة ليست فى غيره من العلماء الذين عاصروه نعم كان فى كثير منهم فضل من الذكاء والحافظة الواعية ، ولكن لم يكن منهم من له ذلك الاستقلال الفكرى يدرس كتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح فى أى أمر يعرض له أو يسأل عنه ، فما يصل إليه يعتنقه ويدعو إليه ، لا يهمه أخالفه الناس أم وافقوه ، فهو ليس تابعاً كما يجرى على السنة علماء العصر ، وما يعتنقه الناس ، بل هو عبد للدليل وحده يسير وراءه ، ليس سيفه يسوقه الناس إلى الآراء ، بل هو سيفه للدليل وحده .

٥ - قوة الفراسة : فقد كان لقوة عقله ونفاذ بصيرته وحدة مداركه مع قوة الإحساس ينفذ نظره إلى قرارات النفوس فيدركها ، وإلى بواطن الأمور فيكشفها ، فكان الألعى يظن كأنه قد رأى وسمع ، وبدت فراسته واضحة فى كل أمر تولاه ، رأى التتار وحالهم ففهم وسمع بذكاء نفسه أنهم تضعضعوا ، ولم يكونوا عند غزوهم الشام كما بدأوا بل أترفت نفوسهم ، فذهب بأسهم ، ولكن ماضيهم يرعب من يغزونهم فيهمزون بالرعب ، لا بفرط القوة ، رأى العبرى ذلك فكان يقسم الأيمان

المغلظة ، بأن جند مصر والشام لا محالة منتصرون ، فإذا قال له الأخير ، قل ان شاء الله قال أقولها متحققا ، وهذا يدل على قوة فراسته ونفاذ بصيرته .

ورأى رجلاً من طلاب العلم يسير في طرق دمشق كالحائر ، لأنه لم يكن معه ما ينفق ، فناداه ابن تيمية ووضع في يده دراهم ، وقال إنفق منها وأخل خاطرك ، وما تحدث الشاب بحاجته ، ولكنها فراسة المؤمن وكرمه .

وغير هذه الصفات اجتمعت لتجعل منه ذلك العبقرى المجتهد العالم العلامة المفحص المحقق ابن تيمية .



من هو ابن تيمية :

هو الشيخ الإمام الربانى إمام الأئمة ومفتى الأمة وبحر العلوم سيد الحفاظ وفارس المعانى والألفاظ شيخ الإسلام : أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين ، أبى المحاسن عبد الحليم ، ابن الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام مجد الدين أبى البركات : عبد السلام بن أبى محمد عبد الله بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله بن تيمية الحرانى نزىل دمشق ، وصاحب التصانيف التى لم يسبق إلى مثلها .

ولد شيخنا بخران يوم الاثنين عاشر وقيل ثانى عشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وسافر والده به وبإخوته إلى الشام عند جور التتار ، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة ، لعدم الدواب ، فكاد العدو يلحقهم ووقفت العجلة فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به فنجوا وسلموا .

ولما قدم دمشق سمع الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى ، وسمع من الجمال يحى بن الصيرفى ، وأحمد بن أبى الخير

والقاسم الأرملى . وغيرهم وغيرهم .

وعنى بالحديث وقرأ ونسخ وحفظ القرآن وأقبل على الفقه وقرأ العربية وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم فى النحو ، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً . . وهذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة ، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه . وصنف الشيخ الكثير والكثير مما لا يعد ومن ذلك ما جمعه فى تفسير القرآن العظيم ، وكتاب الإيمان ، وكتاب الاستقامة فى مجلدين « وكتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، والسياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، واقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم . . الخ .

ومرت بالشيخ سنون عجاف ومحن كثيرة من أحقاد المغرضين فصبر وانتصر ولا ينسى له كيف قاد الحرب ضد التتار وكيف نزل فى ميادين القتال .

وكانت المحنة الأخيرة فقد منع من الكتابة وهو بالسجن فبلغ الضيق أقصاه ، ولكنه لم يفل ذلك الضيق على ملك النفس الحرة الكريمة ، وذلك الفكر القوى المنطلق فى سماء الدين يخلق فيها ، فقد قبضه الله سبحانه وتعالى إليه فى العشرين من شوال سنة ٦٢٨ أى لم يمكث فى هذا الضيق نحو خمسة أشهر ، وكان ذلك عقب مرض لم يمهل أكثر من بضعة وعشرين يوماً .

ويوم جنازته كان يوماً من أيام التاريخ فقد خرجت الدنيا وراءه تودع العالم النادر الذى لم نقف على مثله حتى عصرنا . . رحم الله الشيخ وأسكنه فسيح جناته .



قواعد الأديان :

قواعد الأديان وجدناه بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٥٧٧)
تصوف وأخلاق دينية . . . وقد كتب عليه « زسالتان في قواعد الأديان »
فزدنا عليه الرسالة الثالثة وأسميناه « قواعد الأديان » .

وقد نسخنا الرسالتين من المخطوطة وألحقنا بهما الرسالة الثالثة إذ أنها
مكملة لهما مفيدة غاية الإفادة جابرة لما كان بهما من نقص .

واتبعنا بعد ذلك ما يلي : -

- ١ - خرجنا الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة
- ٢ - علقنا على ما يستحق من تعليق .
- ٣ - صححنا ما ورد بالأصل من تصحيح .
- ٤ - أثبتنا الأحكام التي أرادها الشيخ وأشار إليها فأوردناها كاملة في
الهامش .

- ٥ - ترجمنا للأعلام الواردة أسماؤهم في المخطوطة .
- ٦ - ناقشنا بعض آراء معارضى الشيخ في الهامش .
- ٧ - أعددنا هذه الدراسة عن الكتاب والشيخ . .
- ٨ - وضعنا فهرس عامة للكتاب .

رسائل ابن تيمية :

هذا وللشيخ رسائل أخرى مثل هاتين الرسالتين ذكرنا ظروف الكثير
منها حيث أنها رسائل كانت تكتب لتنزل في المعارك فأصبح من سماتها
الحدة والغلظة ولم يكن هذا من طبع ولا سلوك الشيخ .

ورسائل الشيخ ومختصراته رغم ما فيها من حدة إلا أنها تعتبر موسوعة
علمية شاملة من يقرأها ويدمن مطالعتها يصل إلى أعلى مستوى علمي
وهي مع صغرها إلا أنها تحوى فحوى الكلام ومقصد الكلام ونهاية
البحوث والدراسات إذ أن كاتبها صاحب ألمعية علمية . . وزيادة في

- النفع رأينا أن نشير للقارئ ببعض رسائله وهي :-
- قاعدة في الكلام على الممكن .
 - قاعدة في ذبائح أهل الكتاب .
 - قاعدة في تعليل الأفعال .
 - قاعدة في الكلام على العدو .
 - ورسالة كتبها إلى الشيخ شمس الدين الدباهي تسمى بالمدنية
 - ورسالة كتبها إلى الشيخ نصر المنيحي تسمى المصرية .
 - ورسالة كتبها إلى أهل البصرة .
 - ورسالة كتبها إلى القاضي شمس الدين السروجي ، قاضي الحنفية بمصر .
 - ورسائل إلى غيره من القضاة والعلماء .
 - ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ عدى بن مسافر ، تسمى بالعدوية .
 - ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ جاكير ، وأرسل إليهم أجوبة في مجلد غير الرسالة .
 - ورسالة كتبها إلى ملك قبرص في مصالح المسلمين تتضمن علوماً نافعة .
 - وله رسائل إلى البحرين وإلى ملوك العرب .
 - وإلى ثغور الشام : إلى طرابلس وغيرها بمصالح تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
 - ورسالة لأهل تدمر .
 - ورسالة إلى طبرستان وجيلان .
 - ورسائل للملوك : ملك مصر ، وملك حماة وغيرها .
 - ورسائل إلى الأمراء الكبار .
 - ورسائل كثيرة كتبها إلى العلماء من إخوانه من مصر إلى دمشق ومن دمشق إلى غيرها .

وكذا قواعد كثيرة جداً لا تُعد ، نسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلها في
سجل أعماله . . ونفع الله المسلمين بهذه الرسائل الثلاث في قواعد
الأديان .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إبراهيم محمد الجمل

غرة رمضان سنة ١٤٠١ هـ

هاتان الرسالتان اللتان في قواعد الأديان

الأولى سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والثانية سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والثالثة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والرابعة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والخامسة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والسادسة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والسابعة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والثامنة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والتاسعة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والعاشرة سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والحادية عشر سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والثانية عشر سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والثالثة عشر سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والرابعة عشر سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

والخامسة عشر سرها الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر النعماني أرحم الراحمين

الصفحة الثانية من المخطوطة (اول الرسالة الأولى)

[illegible]

[illegible]

أولاً
رسالة ابن تيمية إلى الشيعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم فريد عصره ، مفتى الفرق ، شيخ الإسلام ، تقى الدين ابن تيمية أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العالم شهاب الدين عبد الحلیم ابن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين عبد السلام بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه وأعلى درجته .

هذا الكتاب إلى من يصل إليه من الإخوان المؤمنين الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . الذين يحبون الله ورسوله ، ومن أحبه الله ورسوله ، ويعرفون حق المتصلين برسول الله ما شرعه الله ورسوله ، فإن من محبة الله ^(١) وطاعته محبة رسوله وطاعته ، ومن محبة رسوله وطاعته محبة من أحبه

(١) المحبة : قال تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » قال ابن القيم في تفسيرها : فيها قولان : أحدهما : « الذين آمنوا أشد حبا لله » من أصحاب الأنداد لأناداهم وأهتهم التى يحبونها ، ويعظمونها من دون الله . والثانى من محبة المشركين بالأنداد وبالله . فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد وقد ذهبت أناداهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة : أشد من المحبة المشتركة ، والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى « يحبونهم كحب الله » فإن فيها قولان : أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً والثانى : أن المعنى تحبون أناداهم كما يحب المؤمنون الله . ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأناداهم . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يرجح القول الأول ، ويقول : انما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أناداهم فى المحبة . ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له .
مدارج السالكين بتصرف (٢١) ط السنة المحمدية .

الرسول وطاعة من أمر الرسول بطاعته ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ ﴿١﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » (٢) . أ . ه .

وقال ﷺ فيما رواه عنه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « إنها الطاعة فى المعروف » أ . ه . (٣) .

(١) ٥٩ : النساء .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى ومسلم والنسائى انظر جامع الأحاديث (٢٣١٧٠)

(٣) أخرجه البخارى (٢٠٣/١٣) فتح ، ومسلم (١٥/٦) وأبوداود (٢٦٢٥)

والنسائى (١٨٧/٢) والطيالسى (١٠٩) وأحمد (٩٤/١) عن على وفى الحديث فوائد كثيرة أهمها أنه لا يجوز إطاعة أحد فى معصية الله تبارك وتعالى سواء فى ذلك الأمراء والعلماء والمشايخ ، ومنه يعلم ضلال طوائف من الناس الأولى : بعض المتصوفة الذين يطيعون شيوخهم ولو أمرهم بمعصية ظاهرة بحجة أنها فى الحقيقة ليست بمعصية ، وأن الشيخ يرى مالا يرى المريد ، وأعرف شيخاً من هؤلاء نصب نفسه مرشداً قص على أتباعه فى بعض دروسه فى المسجد قصة خلاصتها أن أحد مشايخ الصوفية أمر ليلة أحد مريديه بأن يذهب إلى أبيه فيقتله على فراشه بجانب زوجته ، فلما قتله ، عاد إلى شيخه مسروراً لتنفيذ أمر الشيخ فنظر إليه الشيخ وقال : انتظن أنك قتلت أباك حقيقة ؟ إنما هو صاحب أملك وأما أبوك فهو غائب ! ثم بنى على هذه القصة حكماً شرعياً بزعم فقال لهم : إن الشيخ إذا أمر مريديه بحكم مخالف للشرع فى الظاهر إن على المريد أن يطيعه فى ذلك ، قال ألا ترون إلى هذا الشيخ أنه فى الظاهر أمر الولد بقتل والده ولكنه فى الحقيقة إنما أمره بقتل الزانى بوالدة الولد ، وهو يستحق القتل شرعاً ولا يخفى بطلان هذه =

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، ونصلي على إمام المتقين ، وخاتم النبيين محمد عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .
أما بعد / .

تماسك المسلمين بشرعهم :

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالكتاب والحكمة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ ﴾ (٢) .

= القصة من وجوه كثيرة :

أولاً : أن تنفيذ الحد ليس من حق الشيخ مهما كان شأنه ، وإنما هو من حق الأمير أو الوالي .

ثانياً : إنه لو كان له ذلك فلماذا نفذ الحد بالرجل دون المرأة وهما في ذلك سواء .

ثالثاً : إن الزاني المحصن حكمه شرعاً القتل رجماً ، وليس القتل بغير الرجم . ومن ذلك يتبين أن الشيخ قد خالف الشرع . عن الاحاديث الصحيحة (٢/ ١٤٤) .

والطائفة الثانية : المقلدة .

والطائفة الثالثة : الذين لا يطيعون ولاية الأمور فيما يشرعون للناس من نظم وقرارات مخالفة للشرع كالشيوعية وما شابهها .

(١) ١٦٤ : آل عمران .

(٢) ٢٣١ : البقرة .

وقال لأزواج نبيه « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » ^(١) والذي كان يتلوه هو ورسوله ﷺ في بيوت أزواجه كتاب الله والحكمة . فكتاب الله هو القرآن ، والحكمة هي ما كان يذكره من كلامه ، وهي سنته ، فعلى المسلمين أن يتعلموا هذا وهذا .

وفي الحديث المشهور الذي رواه الترمذى وغيره عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « ستكون فتنه قلت : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » ^(٢) .

وقال الله فى كتابه ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ ^(٣) ، وقال فى كتابه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ^(٤) فذم الذين تفرقوا أحزاباً وشيعاً ، وحمد الذين اتفقوا وصاروا جميعاً معتصمين بحبل الله الذى هو كتابه شيعه واحده للأنبياء كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٥) ، وإبراهيم هو إمام الأنبياء كما قال تعالى ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

(١) ٣٤ : الأحزاب

(٢) الحديث مشهور رواه أصحاب السنة بإسناد جيد .

(٣) ١٠٣ آل عمران .

(٤) ١٥٩ : الأنعام .

(٥) ٨٣ : الصافات .

عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى أن قال ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أمته أن يقولوا إذا أصبحوا : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (٣) .

وقال النبي ﷺ « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، فلا ألفين رجلاً شبعان على أريكته يقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه إلى ألا أوتيت القرآن ومثله معه » (٤) أ . هـ .

فهذا الحديث موافق لكتاب الله ، فإن الله ذكر في كتابه أنه ﷺ يتلو الكتاب والحكمة ، وهى التى أوتيها مع الكتاب ، وقد أمر في كتابه بالاعتصام بحبله واحدة ، لا شيعاً متفرقين ، وقال الله في كتابه « وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » (٥) أ . هـ .

(١) ١٢٤ : البقرة .

(٢) ١٢٠ : النحل .

(٣) الحديث أخرجه الدارمى (استئذان / ٥٤) وأحمد (٣ / ٤٠٦) .

(٤) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده (٤ / ١٣١) .

(٥) الحجرات : ٩ .

فجعل المؤمنين اخوة ، وأمر بالاصلاح بينهم بالعدل مع وجود الاقتتال والبغى .

وقال النبي ﷺ « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »^(١) أ . ه .

وقال « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »^(٢) أ . ه . وشبك بين أصابعه .

فهذه أصول الإسلام التى هى الكتاب والحكمة والاعتصام بحبل الله جميعاً واجب على أهل الإيـمان للاستمساك بها .

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ، ومسلم عن النعمان بن بشير وهو صحيح (٢٩٠) الجامع الصغير .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى موسى وهو صحيح انظر الجامع الصغير (٣١٧) .

خصائص أهل البيت

أهل البيت ؟

ولاريب أن الله قد أوجب فيها من حرمة خلفائه وأهل بيته والسابقين الأولين ، والتابعين لهم بإحسان ما أوجب ، قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهُنَّ فَأَتَّعَلِينَ أَمْتَعَكُنَّ وَآمْرَحُكُنَّ مَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) .

وقد روى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما عن أم سلمة : أن هذه الآية لما نزلت أدار النبي ﷺ كساءه على على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » . وسنته تفسر كتاب الله وتبينه ، وتدل عليه ، وتعبّر عنه . فلما قال : « هؤلاء أهل بيتى » مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه ، علمنا أن أزواجه وان كن من أهل بيته كما دل عليه القرآن ، فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته ، لأن صلة النسب أقوى من صلة الصهر ، والعرب تجعل هذا البيان للاختصاص بالكمال لا للاختصاص بأصل الحكم ، كقول النبي ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، وإنما المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُتفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » (٢) .

بين بذلك : أن هذا مختص بكمال المسكنة ، بخلاف الطواف فإنه لا تكمل فيه المسكنة ، لوجود من يعطيه أحيانا ، مع أنه مسكين أيضاً ، ويقال : هذا هو العالم ، وهذا هو العدو ، وهذا هو المسلم ،

(١) ٢٨ : الأحزاب .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد وأبو داود والنسائي عن ابن عمرو وهو صحيح كذا قال السيوطى فى الجامع الصغير (٢٧٢) .

لمن كمل فيه ذلك وإن شاركه غيره في ذلك وكان دونه .

ونظير هذا [في] الحديث مارواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال « مسجدي هذا » يعني مسجد المدينة . مع أن سياق القرآن في قوله عن مسجد الضرار :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ^(١)

يقتضى أنه مسجد قباء . فإنه قد تواتر أنه قال لأهل قباء : « ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به » ؟ .

فقالوا : لأننا نستنجي بالماء ، لكن مسجده أحق بأن يكون مؤسساً على التقوى من مسجد قباء ، وإن كان كل منهما مؤسساً على التقوى ؟ وهو أحق أن يقوم فيه من مسجد الضرار ، فقد ثبت عنه ﷺ : أنه كان يأتي قباء كل سبت راكباً وماشيئاً ، فكان يقوم في مسجده القيام الجامع يوم الجمعة ، ثم يقوم بقباء يوم السبت ، وفي كل منهما قد قام في المسجد المؤسس على التقوى .

ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته ويطهرهم تطهيراً ، دعا النبي ﷺ لأقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصاً به ، وهم على وفاطمة ، رضى الله عنهما ، وسيدى شباب أهل الجنة ، جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير ، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبي ﷺ ، فكان في ذلك ما دلنا على أن إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم نعمة من الله ، ليسبغها عليهم ، ورحمة من الله وفضل لم يبلغوها بمجرد حولهم وقوتهم ، إذ لو كان كذلك لا استغنوا بهما عن دعاء النبي ﷺ ، كما يظن من يظن أنه قد استغنى في هدايته وطاعته عن إعانة الله تعالى له ، وهدايته إياه .

وقد ثبت أيضاً بالنقل الصحيح : أن هذه الآيات لما نزلت قرأها النبي ﷺ على أزواجه وخيرهن كما أمره الله ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ولذلك أقرهم ولم يطلقهن حتى مات عنهن ، ولو أردن الحياة الدنيا وزينتها لكان يمتعهن ويسرحهن كما أمره الله تعالى ، فإنه ﷺ أخشى الأمة لربه وأعلمهم بحدوده .

ولأجل ما دلت عليه هذه الآيات من مضاعفة للأجور ورفع الوزر بلغنا عن الإمام على بن الحسين زين العابدين وقرة عين الإسلام أنه قال « إني لأرجو أن يعطى الله للمحسن منا أجرين ، وأخاف أن يجعل على المسيء منا وزرين » .

وثبت في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أنه قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير يدعى « خم »^(١) بين مكة والمدينة فقال : « وأهل بيتي » أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي »^(٢) .

قيل لزيد بن أرقم : ومن أهل بيته ؟ قال : الذين حرموا الصدقة : آل على ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل عباس ، قيل لزيد : أكل هؤلاء أهل بيته ؟ قال نعم .

وقد ثبت عن النبي ﷺ من وجوه صحاح أن الله لما أنزل عليه ﴿ إِنَّا اللَّهُ وَمَلَكْنَاهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(٣) .

سأل الصحابة : كيف يصلون عليه ، فقال : « قولوا : اللهم صل

(١) خم : هو بئر كلاب بن مرة انظر معجم البلدان (٢ / ٣٨٩)

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في مسنده (٤ / ٣٦٧) .

(٣) ٥٦ : الأحزاب .

على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » ^(١) .

وفي حديث صحيح « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته » ^(٢)

خصائص وسمات :

وثبت عنه أن ابنه الحسن لما تناول ثمرة من تمر الصدقة قال له : كخ ، أما علمت أنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة ^(٣) وقال « ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » ^(٤) .

وهذا والله أعلم من التطهير الذي شرعه الله لهم ، فإن الصدقة أوساخ الناس ، فطهرهم الله من الأوساخ ، وعوضهم بما يقبضونهم من خمس الغنائم ، ومن الفىء الذي جعل منه رزق محمد حيث قال صلى الله عليه وسلم فيا رواه أحمد وغيره « بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » أ . ه .

ولهذا ينبغي أن يكون اهتمامهم بكفاية أهل البيت الذين حرمت

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده (٤ / ٢٤٣ ، ٢٤٤) (٥ / ٢٧٤) .

(٢) الحديث رواه الامام احمد في مسنده (٥ / ٣٧٤) .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم عن أبى رافع وهو صحيح (٧٤) الجامع الصغير .

(٤) الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى عن ابن عمر انظر الجامع الصغير (١١٣) ط دار القلم .

عليهم الصدقة أكثر من اهتمامهم بكفاية الآخرين من الصدقة ، لاسيما إذا تعذر أخذهم من الخمس والفيء ، إما لقلة ذلك ، وأما لظلم من يستولى على حقوقهم ، فيمنعهم إياها من ولاية الظلم ، فيعطون من الصدقة المفروضة ما يكفيهم إذا لم تحصل كفايتهم من الخمس والفيء .

أهل الفيء :

وعلى الآخذين من الفيء من ذوى القربى وغيرهم أن يتصفوا بما وصف الله به أهل الفيء في كتابه حيث قال ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾^(١) الآيات

فجعل أهل الفيء ثلاثة أصناف . المهاجرين والأنصار ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

وذلك أن الفيء إنما حصل بجهاد المهاجرين والأنصار وإيمانهم وهجرتهم ونصرتهم ، فالتأخرون إنما يتناولونه مخلصاً عن أولئك ، مشبهاً بتناول الوارث ميراث أبيه ، فإن لم يكن مالياً له لم يستحق الميراث ، فلا يرث المسلم الكافر ، فمن لم يستغفر لأولئك بل كان مبغضاً لهم خرج عن الوصف الذى وصف الله به أهل الفيء ، حتى يكون قلبه مسلماً لهم ، ولسانه داعياً لهم ، ولو فرض أنه صدر منهم ذنب محقق فإن الله يغفره له بحسناته العظيمة ، أو بتوبة تصدر منه أو ببتليه ببلاء يكفر به سيئاته ، أو يقبل فيه شفاعة نبيه وإخوته المؤمنين ، أو يدعو الله بدعاء يستجيبه له .



(١) ٧ : الحشر .

(٢) ١٠ : الحشر .

سب الصحابة :

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحاح من رواية أمير المؤمنين أبي طالب رضي الله عنه أن حاطب بن أبي بلتعة ^(١) كاتب كفار لما أراد النبي ﷺ أن يغزوهم غزوة الفتح ، فبعث إليهم امرأة معها كتاب يخبرهم فيه بذلك ، فجاء الوحي إلى النبي ﷺ بذلك ، فبعث علياً والزبير فأحضرا الكتاب ، فقال « ما هذا يا حاطب » ؟ فقال : والله يا رسول الله ما فعلت ذلك أذى ولا كفراً ، ولكن كنت امرأة ملصقا من قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من أصحابك لهم قرابات يحمون بها أهلهم فأردت أن أتخذ عندهم يداً أحمي بها قرابتي . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال « إنه شهد بدرأً » ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ ^(٢) أ . هـ .

وثبت في صحيح مسلم أن غلام حاطب هذا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله والله ليدخلن حاطب النار ، وكان حاطب يسيء إلى مماليكه . فقال النبي ﷺ : كذبت ، إنه قد شهد بدرأً والحديبية ، وقال ﷺ : « لا يدخل النار واحد بايع تحت الشجرة » ^(٣) أ . هـ .

فهذا حاطب قد تجسس على رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة التي كان ﷺ يكتمها عن عدوه ، وكتمها عن أصحابه ، وهذا من الذنوب الشديدة جداً . وكان يسيء إلى مماليكه ، وفي الحديث المرفوع . « لن

(١) حاطب بن بلتعة أحد الصحابة عرف بهذه القصة

(٢) ١ : المتحنة

(٣) الحديث : رواه أحمد في مسنده (٣ / ٣٥٠) .

يدخل الجنة سىء الملكة » . ثم مع هذا لما شهد بدرًا والحديبية غفر الله له ورضى عنه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات . فكيف بالذين هم أفضل من حاطب وأعظم إيماناً وعلماً وهجرة وجهاداً ، فلم يذنب أحد قريباً من ذنوبه ؟ !

ثم إن أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه روى هذا الحديث في خلافته ، ورواه عنه كاتبه عبيد الله بن أبى رافع ، وأخبر فيه أنه هو الزبير ذهباً لطلب الكتاب من المرأة الطعينة ، وأن النبى ﷺ شهد لأهل بدر بما شهد ، مع علم أمير المؤمنين بما جرى ، ليكف القلوب والألسنة من أن تتكلم فيهم إلا بالحسنى ، فلم يأت أحد منهم بأشد مما جاء به حاطب ، بل كانوا في غالب ما يأتون به مجتهدين ، وقد قال النبى ﷺ « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ^(٢) وهذا حديث صحيح مشهور .

وثبت عنه أيضاً أنه لما كان في غزوة الأحزاب فرد الله الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأمر نبيه بقصد بنى قريظة قال لأصحابه : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بنى قريظة » ^(٣) فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فمنهم قوم قالوا : لا نصليها إلا في بنى قريظة ، ومنهم قوم قالوا : لم يرد منا تفويت الصلاة ، وإنما أراد المسارعة فصلوا في الطريق فلم يعنف النبى ﷺ واحدة من الطائفتين .

وكانت سنة رسول الله ﷺ هذه موافقة لما ذكره الله تعالى كتابه حيث قال ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ^(٤) . فأخبر

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده (١ / ٧ ، ١٢) .

(٢) الحديث : رواه أحمد في مسنده (٢ / ١٨٧) .

(٣) الحديث : أخرجه البخارى (مغازى ٣٠ ، خوف / ٥٠) .

(٤) ٧٨ : الأنبياء .

سبحانه وتعالى أنه خص أحد النبيين بفهم الحكم في تلك القضية وأثنى على كل منهما ما آتاه الله من العلم والحكم .

فهكذا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه كانوا فيما تنازعوا فيه مجتهدين طالبين للحق .

موقف الشيعة :

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « من يعيش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » ^(١) أ . هـ .

وروى عنه موله سفينة أنه قال : « الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً » ^(٢) أ . هـ فكان آخر الثلاثين حين سلم سبط رسول الله ﷺ : الحسن بن على رضى الله عنهما الأمر إلى معاوية . وكان معاوية أول الملوك وفيه ملك ورحمة كما روى في الحديث « ستكون خلافة نبوة ، ثم يكون ملك ورحمة ، ثم يكون ملك وجبرية ، ثم يكون ملك عضوض » أ . هـ ^(٣) .

(١) الحديث : رواه الامام احمد (٤ / ١٢٦ ، ١٢٧)

(٢) الحديث أخرجه أبو داود (٤٦٤٦ و ٤٦٤٧) والترمذى (٣٥ / ٢) والطحاوى فى مشكل الآثار (٣١٣ / ٤) وابن حبان فى صحيحه (١٥٣٤) ، (١٥٣٥) موارد ، وابن أبى عاصم فى السنة (ق ١٤ / ٢) والحاكم (٧١ / ٣) و (١٤٤٥) وأحمد فى المسند (٥) ٢٢٠ و (٢٢) والرويانى فى مسنده (١ / ١٣٦ / ٢٥) وأبو يعلى (٢ / ١٥ / ٣) قال الترمذى حديث حسن .

(٣) الحديث روى نحوه أحمد (٤ / ٢٧٣) ، والطيالسى (٤٣٨) ، قال الهيثمى فى مجمع الوائد (١٨٩ / ٥) رواه أحمد والبخارى ، أتم منه والطبرانى ببعض فى « الأوسط » ورجاله ثقات .

وقد ثبت عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه من وجوه أنه لما قاتل أهل الجمل لم يسب لهم ذرية ولم يغنم لهم مالاً ، ولا أجهز على جريح ، ولا اتبع مدبراً ، ولا قتل أسيراً وأنه صلى على قتلى الطائفتين بالجمل وصفين وقالوا « إخواننا بغوا علينا » . وأخبر أنهم ليسوا بكفار ولا منافقين ، واتبع فيما قاله كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن الله سباهم أخوة ، وجعلهم مؤمنين فى الاقتتال والبغى كما ذكر فى قوله ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾

وثبت عن النبى ﷺ فى الصحاح أنه قال « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » ^(٢) . وهذه المارقة هم أهل حروراء ^(٣) ، الذين قتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وأصحابه لما مرقوا عن الإسلام ، وخرجوا عليه فكفروه ، وكفروا سائر المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وقد ثبت عن النبى ﷺ من طرق متواترة أنه وصفهم وأمر بقتالهم فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقرآنه مع قرآنهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لو يعلم الذين يقتلونهم ما لهم على لسان محمد ﷺ لا تكلوا عن العمل » أ . هـ ^(١) .

(١) الحجرات : ٩ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم (زكاة / ١٥٠ ، ١٥٢) وأبو داود (سنة / ١٢) (٣ / ٣٢ ، ٤٨) .

(٣) حروراء : بفتح حاء وسكون الواو مشتقة من الريح الحارة : موضع بالقرب من الكوفة انظر معجم البلدان (٢ / ٢٤٥)

(٤) الحديث : أخرجه البخارى (انبياء / ٦) مناقب (٢٥) مغازى (٦١) فضائل القرام (٣٦) ، أدب (٩٥) توحيد (٣٣) ، (٥٧) استتابة (٩٥) ومسلم (زكاة ١٤٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨) وأبو داود (سنة / ٢٨) والترمذى (فتن / ٢٤) والنسائى (زكاة / ٧٩) وتحريم (٢٦) وابن ماجه (مقدمة / =

فقتلهم على رضى الله عنه وأصحابه ، وسر أمير المؤمنين بقتلهم سروراً شديداً ، وسجد لله شكراً ، لما ظهر فيهم علامتهم وهو المخدج اليد ، الذى على يده مثل البضعة من اللحم ، عليها شعرات فاتفق جميع الصحابة على استحلال قتالهم ، وندم كثير منهم كابن عمر وغيره على ألا يكونوا شهدوا قتالهم مع أمير المؤمنين ، بخلاف ما جرى فى وقعة الجمل وصفين ، فإن أمير المؤمنين كان متوجعاً لذلك القتال ، متشكياً مما جرى ، فيراجع هو وابنه الحسن القول فيه ، ويذكر له الحسن أن رأيه ألا يفعله ، فلا يستوى ما سر قلب أمير المؤمنين وأصحابه وغبطه به من لم يشهده ، مع مما تواتر عن النبى ﷺ فيه وساءه ، وساء قلب أفضل أهل بيته ، حب النبى ﷺ الذى قال فيه « اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه » ^(١) وإن كان أمير المؤمنين هو أولى بالحق ممن قاتله فى جميع حروبه .

ولا يستوى القتلى الذين صلى عليهم وسماهم إخواننا ، والقتلى الذين لم يصل عليهم ، بل قيل له : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ^(٢) فقال : هم أهل حروراء .

فهذا الفرق بين أهل حروراء وبين غيرهم الذى سماه أمير المؤمنين فى خلافته بقوله وفعله موافقاً فيه لكتاب الله وسنة نبيه هو الصواب الذى لا معدل عنه لمن هدى رشده ، وإن كان كثيراً من علماء السلف والخلف لا يهتدون لهذا الفرقان ، بل يجعلون السيرة فى الجميع واحدة فيما أن

= (١٢) والدارمى (مقدمة / ٢١) ومالك فى الموطأ (١٠) وأحمد (١ / ٨٨) ٩٢ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٢٥٦ .
(١) الحديث : أخرجه الامام أحمد فى مسنده (٢ / ٢٤٩ ، ٣٣١) ونحوه (٤ / ٢٩٢) .

(٢) ١٠٤ : الكهف .

يقصروا بالخوارج عما يستحقونه من البغض واللعنة والعقوبة والقتل وإما أن يزيدوا على غيرهم ما يستحقونه من ذلك .



الضلال :

وسبب ذلك قلة العلم والفهم لكتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وسيرة خلفائه الراشدين المهديين ، وإلا فمن استهدى الله واستعانه وبحث عن ذلك ، وطلب الصحيح من المنقول ، وتدبر كتاب الله ، وسنة نبيه ، وسنة خلفائه ، لا سيما سيرة أمير المؤمنين الهادي المهدي التي جرى فيها ما اشتبه على خلق كثير فضلوا بسبب ذلك ، إما غلوا فيه ، وإما جفاء عنه ، كما روى عنه قال : « يهلك في رجلان : محب غال يقرظني بما ليس في ومبغض قال يرميني بما نزهني الله منه » أ . هـ ^(١) .

وحد ذلك وملاك ذلك شيان : طلب الهدى ، ومجانبة الهوى ، حتى لا يكون الإنسان ضالاً وغاوياً ، بل مهتدياً راشداً ، قال الله تعالى في حق نبيه ﷺ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾ ^(٢) .

فوصفه بأنه ليس بضال وهو الجاهل ، ولا غاو ، وهو الظالم ، فإن صلاح العبد في أنه يعلم الحق ويعمل به ، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه ، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو ، ومن علمه وعمل به كان من أولى الأيدي عملاً ، ومن أولى الأبصار علماً ، وهو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله سبحانه في كل صلاة أن نقول ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

(١) الحديث : أخرجه الامام احمد في مسنده (١ / ١٦٠) .

(٢) أول النجم .

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(١) ﴿

فالمغضوب عليهم : الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كاليهود ،
والضالون : الذين يعملون أعمال القلوب والجوارح بلا علم
كالنصارى . ولهذا وصف الله اليهود بالغواية في قوله ﴿ سَأَصْرِفُ
عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا^(٢) ﴾ .

ووصف العالم الذى لم يعمل بعلمه بذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَنْتَلِ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ^(٣) ﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ^(٤) ﴾ .

ووصف النصارى بالضللال في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ
ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ^(٥) ﴾ .

ووصف بذلك من يتبع هواه بغير علم حيث قال ﴿ وَإِنْ كَثِيرٌ مِمَّنْ
يُتَّبِعُوا أَهْوَاءَ بَغِيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ^(٦) ﴾ .

وأخبر أن من اتبع هداه المنزل فإنه لا يضل كما ضل الضالون
ولا يشقى كما شقى المغضوب عليهم فقال ﴿ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى
فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى^(٧) ﴾ .

(١) من فاتحة الكتاب .

(٢) ١٤٦ : الأعراف .

(٣) ١٧٥ : الأعراف .

(٤) ٧٧ : المائدة .

(٥) ١١٩ : الأنعام .

(٦) ١٢٣ : طه .

قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

ومن تمام الهداية : أن ينظر المستهدى في كتاب الله ، وفيما تواتر من سنة نبيه ، وسنة الخلفاء ، وما نقله الثقات الأثبات ، ويميز بين ذلك وبين ما نقله من لا يحفظ الحديث ، أو يتهم فيه بكذب لغرض من الأغراض فإن المحدث بالباطل إما أن يتعمد الكذب ، أو يكذب خطأ لسوء حفظه أو نسيانه أو لقلّة فهمه وضبطه .

ثم إذا حصلت « للمستهدى » المعرفة بذلك تدبر ذلك ، وجمع بين المتفق منه ، وتدبر المختلف منه ، حتى يتبين له أنه متفق في الحقيقة وإن كان الظاهر مختلفاً ، أو أن بعضه راجح يجب اتباعه ، والآخر مرجوح ليس بدليل في الحقيقة ، وإن كان في الظاهر دليلاً .

أما غلط الناس فلعدم التمييز بين ما يعقل من النصوص والآثار ، أو يعقل بمجرد القياس والاعتبار ، ثم إذا خالط الظن والغلط في العلم هوى النفوس ومناهما في العمل صار لصاحبها نصيب من قوله تعالى ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (١) .

وهذا سبب ما خلق الإنسان عليه من الجهل في نوع العلم ، والظلم في نوع العمل ، فبجهله يتبع الظن ، وبظلمه يتبع ما تهوى الأنفس ، ولما بعث الله رسله وأنزل كتبه ، هدى الناس وإرشادهم ، صار أشدهم اتباعاً للرسل أبعدهم عن ذلك ، كما قال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ولهذا صار ما وصف الله بن الإنسان لا يخص غير المسلمين منهم ، ولا يخص طائفة من الأمة ، لكن غير المسلمين أصابهم ذلك في أصول الإييان التي صار جهلهم وظلمهم فيها كفراناً وخسراناً ميبناً ، ولذلك من ابتدع في أصول الدين بدعة جليلة أصابه من ذلك أشد مما يصيب من أخطأ في أمر دقيق أو أذنب فيه ، والنفوس لهجة بمعرفة محاسنها ، ومساوئ غيرها ^(٢) .

وأما العالم العادل فلا يقول إلا الحق ، ولا يتبع إلا إياه ، ولهذا من يتبع المنقول الثابت عن النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه وأئمة أهل بيته ، مثل الإمام على بن الحسين زين العابدين ، وابنه الإمام أبى جعفر محمد بن على الباقر وابنه الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق شيخ علماء الأمة ، ومثل أنس بن مالك ، والثورى وطبقتهما ، وجد ذلك جميعه متفقاً مجتمعاً في أصول دينهم ، وجماع شرائعهم ، ووجد في ذلك ما يشغله وما يغنيه مما أحدثه كثير من المتأخرين من أنواع المقالات التي تخالف ما كان عليه أولئك السلف .

وهؤلاء المتأخرون من ينتصب لعداوة آل بيت رسول الله ﷺ ، ويبخسهم حقوقهم ويؤذيهم ، أو ممن يغفلوا فيهم غير الحق ، ويفترى عليهم الكذب ويبخس السابقين والطائعين حقوقهم ، ورأى أن في المأثور عن أولئك السلف في باب التوحيد والصفات ، وباب العدل والقدر ، وباب الإييان والأسماء والأحكام ، وباب الوعيد والثواب ،

(١) ٢١٣ : البقرة .

(٢) لأن داخل النفس طبعها وطبعها يريد طلاوتها وحسنها ولا يريد غير ذلك لذا فإن النفس كما ذكر ربنا « أماراة بالسوء » دائماً وميالة إلى الفساد ومن فسادها ما ذكره الشيخ من كونها لهجة بمعرفة محاسنها ومساوئ غيرها .

والعذاب ، وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يتصل به من حكم الأمراء أبرارهم وفجارهم ، وحكم الرعية معهم ، والكلام في الصحابة والقراية مما يبين لكل عاقل عادل أن السلف المذكورين لم يكن بينهم من النزاع في هذه الأبواب إلا من جنس النزاع الذي أقرهم عليه الكتاب والسنة كما تقدم ذكره ، وأن البدع الغليظة المخالفة للكتاب والسنة ، واتفاق أولى الأمر الهداة المهتدين إنما حدثت من الأخلاف ، وقد يعززون بعض ذلك إلى بعض الأسلاف تارة بنقل غير ثابت ، وتارة بتأويل لشيء من كلامهم متشابه .



ثم إن من رحمة الله قل أن ينقل عنهم شيء من ذلك إلا وفي النقول الصحيحة الثابتة عنهم للقول المحكم الصريح ما يبين غلط الغالطين عليهم في النقل أو التأويل ، وهذا لأن الصراط المستقيم في كل الأمة بمنزلة الصراط في الملك ، فكمال الإسلام هو الوسط في الأديان والملك ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ^(١) لم ينحرفوا انحراف اليهود والنصارى والصابئين .

فكذلك أهل الاستقامة ولزوم سنة رسول الله ﷺ ، وما عليه السلف ، تمسكوا بالوسط ، ولم ينحرفوا إلى الأطراف ، فاليهود مثلاً جفوا في الأنبياء والصديقين حتى قتلوهم وكذبوهم ، كما قال الله تعالى ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ^(٢) والنصارى غلوا فيهم حتى عبدوهم كما قال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ ^(٣) .

(١) ١٤٣ : البقرة .

(٢) ٨٧ : البقرة .

(٣) ١٧١ : النساء .

واليهود انحرفوا في النسخ حتى زعموا أنه لا يقع من الله أو لا يجوز عليه ، كما ذكر الله عنهم إنكاره في القرآن حيث قال ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (١) والنصارى قابلوهم فجوزوا للقيسين والرهبان أن يوجبوا ما شاءوا ، ومحرموا ما شاءوا وكذلك تقابلهم في سائر الأمور .

فهدى الله المؤمنين إلى الوسط ، فاعتقدوا في الأنبياء ما يستحقونه ، ووقروهم وعزروهم وأحبوهم وأطاعوهم واتبعوهم ، ولم يردوهم كما فعلت اليهود ، ولا أطروهم ولا غلوا فيهم فنزلوهم منزلة الربوبية كما فعلت النصارى . وكذلك في النسخ ، جوزوا أن ينسخ الله ، ولم يجوزوا لغيره أن ينسخ ، فإن الله له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره .

وهكذا أهل الاستقامة في الإسلام المعتصمون بالحكمة النبوية ، والعصمة الجماعية (٢) متوسطون في باب التوحيد والصفات بين النفاة والمعطلة وبين المشبهة الممثلة ، وفي باب القدر والعدل والأفعال بين القدرية (٣) والجبرية (٤) والقدرية المجوسية (٥) ، وفي باب الأسماء

(١) ١٤٢ : البقرة .

(٢) الجماعية : أى أهل السنة والجماعة الذين يحب بعضهم بعضاً لله ومن أجله وفيه . .

(٣) القدرية الذين يتكلمون في القدر وتنقسم هذه الفرقة إلى أقسام كثيرة انظر « البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان » للشيخ عباس بن منصور السلفى الحنبلى ط دار التراث العربى (٢٦) .

(٤) الجبرية : وهو الذين يقولون بالجبر والاختيار أى القضاء والقدر .

(٥) المجوسية : وهم عباد النار قالوا : لأنها أعظم شئ في الدنيا ، ويسجدون للشمس إذا طلعت وينكرون نبوة آدم ونوح عليها السلام وقالوا : لم يرسل الله عز وجل إلا رسولاً واحداً لا ندرى من هو؟ ويستحلون نكاح الأمهات =

والأحكام بين من أخرج أهل المعاصي من الإيمان بالكلية كالخوارج وأهل المنزل ، وبين من جعل إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والصديقين كالمرجئة والجهمية ^(١) .

وفي باب الوعيد والثواب والعقاب بين الوعيد بين الذين لا يقولون بشفاعة نبينا لأهل الكبائر ، وبين المرجئة الذين لا يقولون بنفوذ الوعيد .

وفي باب الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الذين يوافقون الولاة على الإثم والعدوان ، ويركنون إلى الذين ظلموا ، وبين الذين لا يرون أن يعاونوا أحداً على البر والتقوى ، لا على جهاد ولا جمعة ولا أعياد إلا أن يكون معصوماً ، ولا يدخلوا فيما أمر الله به ورسوله إلا في طاعة من لا وجود له .

فالأولون يدخلون في المحرمات ، وهؤلاء يتركون واجبات الدين

=والبنات والأخوات وسائر الحرمات ويتطهرون بأبوال البقر تديناً البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ط دار التراث العربى (٥٧) .

(١) هم أصحاب جهنم بن صفوان السمرقندى ، كان في زمان صغار التابعين ، وما علمت روى شيئاً لكنه زرع شراً عظيماً قاله الذهبى في الميزان وإليه نسبوا ، وكان يقول هو وفرقة : إن الإيمان هو المعرفة بالقلب بالله ورسوله ، وبجميع ما جاء به من عنده فحسب ، وإن لم يكن مع ذلك اقرار باللسان ولا عمل بالجوارح في تأدية فريضة ولا طاعة ، وإن إيمانهم بذلك كإيمان جبريل عليه السلام ، وإن من تكلم كلمة كفر مثل أن يقول : ان الله شريكاً أولداً أو صاحبة وهو يعتقد خلافه فهو مؤمن لا يضره ذلك .

ويقولون : ان الله تعالى ليس هو شيئاً وان علم الله تعالى محدث أحدثه لنفسه بعد أن لم يكن علماً ، وكذلك قالوا في القدرة . وأن الجنة والنار لم تخلق بعد ، وأنها إذا خلقتا يفنيان ويغنى من فيهم . . الخ من الأقوال الفاسدة والمعتقدات التي قامت على الوهم والإغراق في عالم الخيال . . انظر السابق (١٨) .

وشرائع الإسلام ، وغلاتهم يتركونها لأجل موافقة من يظنونهم ظالماً وقد يكون كاملاً في علمه وعدله .

في أوقات الشدة .

وأهل الاستقامة والاعتدال يطيعون الله ورسوله بحسب الإمكان ، فيتقون الله ما استطاعوا ، وإذا أمرهم الرسول بأمر أتوا منه ما استطاعوا ، ولا يتركون ما أمروا به لفعل غيرهم ما نهى عنه ، بل كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ^(١) ولا يعاونو أحداً على معصية ، ولا يزيلون المنكر بما هو أنكر منه ، ولا يأمرون بالمعروف إلا بالمعروف ، فهم وسط في عامة الأمور ، ولهذا وصفهم النبي ﷺ بأنهم الطائفة الناجية كما ذكر اختلاف أمته وافتراقهم ^(٢) ومن ذلك أن اليوم الذي هو يوم عاشوراء الذي أكرم الله فيه سبط نبيه ، وأحد سيدى شباب أهل الجنة بالشهادة على أيدي من قتله من الفجرة الأشقياء ، وكان ذلك مصيبة عظيمة من أعظم المصائب الواقعة في الإسلام .

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن فاطمة بنت الحسين وقد كانت قد شهدت مصرع أبيها ، عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهم ، عن جده رسول الله ﷺ أنه قال « ما من رجل يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته ، وإن قدمت ، فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها » ^(٣) . ا . هـ .

(١) : ١٠٥ : المائدة .

(٢) في الحديث « افترقت اليهود على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة يعنى بهم أهل السنة والجماعة كما ورد في الروايات .

(٣) الحديث : رواه الامام أحمد (٦ / ٨٨) (٦ / ١١٤) ، (٦ /

(١٢٠) .

فقد علم الله أنه مثل هذه المصيبة العظيمة سيتجدد ذكرها مع تقادم العهد ، فكان من محاسن الإسلام أن روى هذا الحديث المصيبة والمصاب به أولاً ولا ريب أن ذلك إنما فعله الله كرامة للحسين رضى الله عنه ، ورفعاً لدرجته ومنزلته عند الله ، وتبليغاً له منازل الشهداء ، وإحاقاً له بأهل بيته الذين ابتلوا بأصناف البلاء ، ولم يكن الحسن والحسين حصل لهما من الابتلاء ما حصل لجدهما ولأمهما وبهما ، لأنهما ولدا في عز الإسلام ، وتربيا في حجور المؤمنين ، فآتى الله نعمته عليهما بالشهادة ، أحدهما مسموماً ، والآخر مقتولاً ، لأن الله عنده من المنازل العالية في دار كرامته مالا ينهاها إلا أهل البلاء كما قال النبي ﷺ وقد سئل : أى الناس أشد بلاءً ؟ فقال « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » أ . هـ (١) .

وشقى بقتله من أعان عليه ، أورضى به ، فالذى شرعه الله للمؤمنين عند الإصابة بالمصائب وإن عظمت أن يقولوا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد روى الشافعى في مسنده أن النبي ﷺ لما مات وأصاب أهل بيته من المصيبة ما أصابهم ، سمعوا قائلاً يقول : يا آل بيت رسول الله ، إن

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤) وابن سعد (٢/٢٠٨) والحاكم (٣٠٧/٤) من طريق هشام بن سعد بن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبى وهو كما قال « وله شاهد آخر مختصر وهو : « إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » رواه أحمد (٦/٦٣٩) والمحاملى فى الأمانى (٣/٤٤/٣) . وإسناده حسن .

في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ومدرکاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب . . فكانوا يرونه الخضر جاء يعزيهم بالنبي ﷺ .

فأما اتخاذ المآثم في المصائب ، واتخاذ أوقاتها مآثم ، فليس في دين الإسلام ، وهو أمر لم يفعله رسول الله ﷺ ، ولا أحد من السابقين الأولين ، ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من عادة أهل البيت ، ولا غيرهم ، وقد شهد قتل على أهل بيته ، وشهد مقتل الحسين من شاهده من أهل بيته وقد مرت على ذلك سنون كثيرة ، وهم متمسكون بسنة رسول الله ﷺ ، لا يحدثون مأثماً ولا نياحة ^(١) . بل يصبرون ويسترجعون كما أمر الله ورسوله ، أو يفعلون مالا بأس به من الحزن والبكاء عند قرب المصيبة . قال النبي ﷺ « ما كان من العين والقلب فمن الله ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » ^(٢) أ . هـ .

وقال : « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » ^(٣) أ . هـ . يعنى مثل قول المصاب : يا سندها ، يا ناصرها ، يا عضدها .

وقال « إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعاً من جرب وسربالاً من قطران » ^(٤) . وقال « لعن الله النائحة والمستمعة إليها » ^(٥) .

(١) ما ورد في ذلك .

(٢) الحديث : رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨ / ١) .

(٣) الحديث : رواه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٦ / ١) ونحوه (٤٤٢ / ١) .

ونحوه (٣٨٦ / ١) ونحوه (٤٦٥ / ١) ونحوه (٤٣٢ / ١) .

(٤) الحديث : روى نحوه ابو يعلى وابن عدى عن أبى هريرة قال السيوطى في الجامع الصغير

حسن (١٠٧) .

(٥) الحديث : أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٥ / ٣) .

وقد قال في تنزيله ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرَكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) ، وقد فسر النبي ﷺ قوله :

« ولا يعصينك في معروف » بأنها النياحة .

وتبرأ النبي ﷺ من الحالقة والصالقة .

والحالقة : التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والصالقة . التي ترفع صوتها عند المصيبة وقال جرير بن عبد الله : كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعهم الطعام للناس من النياحة ، وأما السنة : أن يُصنع لأهل الميت طعام ، لأن مصيبتهم تشغلهم ، كما قال النبي ﷺ لما نعى جعفر بن أبي طالب لما استشهد بمؤتة قال : « اصنعوا طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم » ^(١) . أ . ه .

وهكذا ما يفعل قوم آخرون يوم عاشوراء من الاكتحال والاختضاب أو المصافحة والاعتسال ، فهو بدعة أيضاً لا أصل لها ، ولم يذكرها أحد من الأئمة المشهورين ، وإنما روى فيها حديث « من اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض تلك السنة ، ومن اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام » ^(٢) ، ونحو ذلك ، ولكن الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه صام يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه وقال : « صومه يكفر سنة » ^(٣) وقرر النبي ﷺ أن الله أنجى فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، وروى أنه كان فيه حوادث الأمم . . فمن كرامة الحسين أن الله

(١) ١٢ : الممتحنة .

(٢) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (١ / ٢٠٥) .

جعل استشهاده فيه .

وقد يجمع الله في الوقت شخصاً أو نوعاً من النعمة التي توجب شكراً ، أو المحنة التي توجب صبراً ، كما أن سابع عشر شهر رمضان فيه كانت وقعة بدر ، وفيه كان مقتل علي . . وأبلغ من ذلك : أن يوم الاثنين في ربيع الأول فيه مولد النبي ﷺ وفيه هجرته وفيه وفاته .

والعبد المؤمن يبتلى بالحسنات التي تسره ، والسيئات التي تسوؤه في الوقت الواحد ، ليكون صباراً شكوراً ، فكيف إذا وقع مثل ذلك في وقتين متعددين من نوع واحد .

ويستحب صوم التاسع والعاشر ، ولا يستحب الكحل ، والذين يصنعونه من الكحل من أهل الدين لا يقصدون به مناصبة أهل البيت وإن كانوا مخطئين في فعلهم ، ومن قصد منهم أهل البيت بذلك أو غيره ، أو فرح أو استشفى بمصائبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فقد قال النبي ﷺ . « والذى نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلي » ^(١) لما شكى إليه العباس أن بعض قریش يجفون بنى هاشم وقال : « وإن الله اصطفى قریشاً من بنى كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قریش ، واصطفانى من بنى هاشم . » وروى عنه أنه قال « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى » ^(٢) أ . هـ وهذا باب واسع يطول القول فيه .

خرافات :

وكان سبب هذه المواصله أن بعض الإخوان قدم بورقة فيها ذكر

(١) الحديث : رواه نحوه الحاكم (٣ / ١٥٠) وقريب منه الطيالسى انظر جامع الأحاديث

(٢٤٦٣٥)

(٢) الحديث : رواه أحمد في مسنده (٤ / ١٠٧) .

النبي ﷺ ، وذكر سادة أهل البيت ، وقد أجرى فيها ذكر النذور لمشهد المنتظر ، فخطب من فضائل أهل البيت وحقوقهم بما سر قلبه ، وشرح صدره ، وكل ما ذكر بعض الواجب ، فإن الكلام في هذا طويل ، ولم يحتمل هذا الحامل أكثر من ذلك . وخطب فيما يتعلق بالأنساب والنذور بما يجب في دين الله ، فسأل المكاتبه بذلك إلى من يذهب إليه من الإخوان ، فإن النبي ﷺ قال « الدين النصيحة » قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » ^(١) .

أما ورقة الأنساب والتواريخ ففيها غلط في مواضع متعددة ، مثل ذكر أن النبي ﷺ توفي في صفر ، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عمرو بن العلاء بن هاشم ، وأن جعفر الصادق توفي في خلافة الرشيد ، وغير ذلك .

فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن النبي ﷺ توفي في شهر ربيع الأول ، شهر مولده ، وشهر هجرته ، وأنه توفي يوم الاثنين ، وفيه أنزل عليه ، وجده هاشم بن عبد مناف ، وانما كان هاشم يسمى عمراً ، ويقال له : عمرو العلاء ، كما قال الشاعر .

وأن جعفرأباً عبد الله توفي سنة ثمان وأربعين في إمارة أبي جعفر المنصور ، وأما المنتظر فقد ذكر طائفة من أهل العلم بأنساب أهل البيت أن الحسن بن علي العسكري لما توفي بعسكر سامراء ولم يعقب ولم ينسل وقال من أثبتته : إنه لما توفي سنة ستين ومائتين كان عمره سنتين أو أكثر من ذلك بقليل ، وأنه غاب من ذلك الوقت ، وأنه من ذلك الوقت حجة الله على أهل الأرض ، لا يتم الإيثار إلا به ، وأنه هو المهدي الذي أخبر به النبي ﷺ ، وأنه يعلم كل ما يفتقر إليه في الدين .

(١) الحديث : أخرجه الامام احمد في مسنده (١ / ٣٥١) ، (٢ / ٢٩٧) (٤ / ١٠٢) .

وهذا موضع ينبغي للمسلم أن يثبت فيه ، ويستهدى الله ويستعينه ، فإن الله قد حرم القول بغير علم ، وذكر أن ذلك من خطوات الشيطان وحرم القول المخالف للحق ، ونصوص التنزيل شاهدة بذلك ، ونهى عن اتباع الهوى .

فأما المهدي الذي بشر به النبي ﷺ فقد رواه أهل العلم العالمون بأخبار النبي ﷺ الحافظون لها ، الباحثون عنها وعن رواتها ، مثل أبي داود ، والترمذي وغيرهما ، ورواه الإمام أحمد في مسنده .

فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :
« لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً ^(١) » أ . هـ .
وروى هذا المعنى من حديث أم سلمة وغيرها .
وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال « المهدي من ولد ابني هذا » .

وأشار إلى الحسن ^(٢) .
وقال ﷺ « يكون في آخر الزمان خليفة يحثو المال حثوا » ^(٣) . وهذا حديث صحيح .

فقد أخبر النبي ﷺ أن اسمه محمد بن عبد الله ، ليس محمد بن الحسن ، ومن قال : إن أبا جده الحسين ، وإن كنيته الحسين أبو عبد الله فقد جعل الكنية اسمه ، فما يخفى على من يخشى الله أن هذا تحريف الكلم عن مواضعه ، وأنه من جنس تأويلات القرامطة .

وقول أمير المؤمنين صريح في أنه حسني لا حسيني ، لأن الحسن

(١) الحديث : أخرجه أبو داود عن ابن مسعود . جامع الأحاديث (١٧٦٨٥)

(٢) الحديث : روى نحوه الامام أحمد في مسنده (١ / ٨٤)

(٣) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (٣ - ٥ ، ٣٨ ، ٣٣٣)

والحسين مشبهان من بعض الوجود بإسماعيل وإسحاق ، وإن لم يكونا
نبيين ولهذا كان النبي ﷺ يقول لهما « أعيدكما بكلمات الله التامة من كل
شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ^(١) .

ويقول : « إن إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق » . وكان
إسماعيل هو الأكبر والأحلم ، ولهذا قال النبي ﷺ وهو يخاطب على المنبر
والحسن معه على المنبر « ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين
عظيمتين من المسلمين » ^(٢) أ . هـ .

فكما أن غالب الأنبياء كانوا من ذرية اسحاق ، فهكذا كان غالب
السادة الأئمة من ذرية الحسين ، وكما أن خاتم الأنبياء الذي طبق أمره
مشارك الأرض ومغاربها كان من ذرية إسماعيل ، فكذلك الخليفة
الراشد المهدي هو آخر الخلفاء يكون من ذرية الحسن .

وأيضاً فإن من كان ابن ستين كان في حكم الكتاب والسنة أن يحجر
عليه في بدنه ، ويحجر عليه في ماله ، حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد ،
فإنه يتيم ، وقد قال تعالى ﴿ وَأَبْتَلُوا أَلْبَتَمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
ءَاتَسَمَ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ^(٣) . فمن لم تفوض الشريعة
إليه أمر نفسه كيف تفوض إليه أمر الأمة ؟ وكيف يجوز أن يكون إماماً
على الأمة من لا يرى ولا يسمع له خبر مع أن الله لا يكلف العباد بطاعة
من لا يقدر على الوصول إليه ، وله أربعمئة وأربعون سنة ينتظر وهو
لم يخرج ، إذ لا وجود له .

وكيف لم يظهر فخواصه وأصحابه المأمونين عليه كما ظهر آبائه ، وما
الموجب لهذا الاختفاء الشديد دون غيره من الآباء ، وما زال العقلاء
قديماً وحديثاً يضحكون بمن يثبت هذا ويعلق دينه به ، حتى جعل

(١) رواه الامام أحمد في مسنده (١ / ٢٧٠)

(٢) الحديث : رواه أحمد في مسنده (٥ / ٥١)

(٣) ٦ : النساء .

الزنادقة هذا وأمثاله طريقاً إلى القدح في الملة ، وتسفيه عقول أهل الدين
إذا كانوا يعتقدون مثل هذا .

لهذا لقد اطلع أهل المعرفة على خلق كثير منافقين زنادقة يتسترون
بإظهار هذا وأمثاله ، ليستميلوا قلوب وعقول الضعفاء وأهل الأهواء ،
ودخل بسبب ذلك من الفساد ما الله به عليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلی العظيم ، والله يصلح أمر هذه الأمة ويهديهم ويرشدهم .



النذور :

وكذلك ما يتعلق بالنذور والمساجد والمشاهد ، فإن الله في كتابه وسنة
نبيه التي نقلها السابقون والتابعون من أهل بيته وغيرهم قد أمر بعمارة
المساجد ، وإقامة الصلوات فيها بحسب الإمكان ، ونهى عن بناء
المساجد على القبور ، ولعن من يفعل ذلك . قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا
يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ
يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾^(١)

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ
وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾^(٢)
وقال تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ
لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾^(٣)

(١) : ١٨ التوبة .

(٢) : ١١٤ البقرة .

(٣) : ٣٧ النور .

وقال « وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا »^(١) .

وقال « وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا »^(٢) .

وقال النبي ﷺ « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة »^(٣) .

وقال « بشر المشائين في ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »^(٤) .

وقال : « من غدا إلى المسجد أوراخ ، أعد الله نزلاً كلما غدا أو راح »^(٥) .

وقال « صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلاته في بيته وسوقه بخمس وعشرين درجة » أ . هـ^(٦) .

وقال « من تطهر في بيته فأحسن الطهور ، وخرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة ، كانت خطوتهما إحداهما ترفع درجة ، والأخرى تحط خطيئة »^(٧) أ . هـ .

وقال « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع

(١) ١٨ : الجن .

(٢) ٤٠ : الحج .

(٣) الحديث أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن عثمان وهو صحيح انظر ح . ص (٣٠٢) .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم عن بريدة وابن ماجه والحاكم عن أنس وهو صحيح مستدرك الحاكم (٢١٢ / ١) .

(٥) الحديث أخرجه أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال السيوطي صحيح (٣١٠) الجامع الصغير .

(٦) الحديث أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة وهو صحيح (١٨٧) ج . ص .

(٧) الحديث : أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . جامع الأحاديث (٢٠٨٤) .

الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وما كان أكثر كان أحب إلى الله » ^(١) أ . ه .

وقال « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عند وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة » ^(٢) أ . ه .
وقال « يصلون لكم ، فإن أحسنوا فلكم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم » ^(٣) أ . ه .

وهذا باب واسع جداً .

وقال أيضاً « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ^(٤) أ . ه .

يحذر ما فعلوه . قالوا ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً وهذا قاله في مرضه .

وقيل قبل موته بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذون القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » ^(٥) .

ولما ذكر كنيسة الحبشة قال « أولئك إذا مات الرجل فيهم بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » أ . ه .

وكل هذه الأحاديث في الصحاح المشاهير .

(١) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (٢ / ٤٧٥)

(٢) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (٥ / ٣١٤)

(٣) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (٢ / ٥٣٧)

(٤) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (١ / ٢١٨ ، ٥١٨)

(٥) الحديث : أخرجه في الصحيحين عن أم سلمة .

وقال أيضا « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » أ . هـ رواه الترمذى وغيره وقال : حديث حسن .

فإذا كان النبي ﷺ قد لعن الذين يتخذون على القبور ، المساجد ، ويسرجون عليها الضوء ، فكيف يستحل مسلم أن يجعل هذا طاعة وقربة ؟ !! .

وفى صحيح مسلم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « بعثنى رسول الله ﷺ فأمرنى ألا أدع قبر مشرفاً إلا سويته ولا تمثالاً إلا طمسته » أ . هـ .

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » أ . هـ .

فهنى النبي ﷺ عن الاجتماع عند قبره ، وأمر بالصلاة عليه فى جميع المواضع ، فإن الصلاة عليه تصل إليه من جميع المواضع ، وهذه الأحاديث رواها أهل بيته ، مثل على بن الحسين عن أبيه عن جده على ، ومثل عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فكانوا هم وجيرانهم من علماء أهل المدينة ينهون عن البدع التى عند قبره أو قبر غيره ، امتثالاً لأمره ، ومتابعة لشريعته ، فإن من مبدأ عبادة الأوثان : العكوف على الأنبياء والصالحين ، والعكوف على تماثيلهم ، وإن كانت تمت بغير ذلك .

وقد ذكر الله فى كتابه عن المشركين أنهم قالوا ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ (١) .

وقد روى طائفة من علماء السلف أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين ، فلما ماتوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، وكذلك قال ابن عباس فى

(١) نوح : ٢٣

قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّتَّ وَالْعُرَّى . وَمَنْزَةَ النَّالِثَةِ الْآخِرَى ﴾ (١) .

قال ابن عباس : كان اللات رجلاً يلت السوق للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره ، ولهذا قال النبي ﷺ « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » . ونهى أن يصلى عند قبره .

ولهذا لما بنى المسلمون حجرته حرقوا مؤخرها وسنوه لثلا يصلى إليه أحد فإنه ﷺ قال « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها » ا . هـ (٢) .

وكان ﷺ إذا خرج إلى أهل البقيع يسلم عليهم ويدعو لهم ، وعلم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور « سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم آجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » أ . هـ (٣) .

هذا مع أن في البقيع إبراهيم وبناته أم كلثوم ورقية ، وسيدة نساء العالمين فاطمة ، وكانت إحداهن دفنت فيه قديماً قريباً من غزوة بدر ، ومع ذلك فلم يحدث على أولئك السادة شيئاً من هذه المنكرات بل المشروع التحية لهم ، والدعاء بالاستغفار وغيره .

وكذلك في حقه أمر بالصلاة والسلام عليه من القرب والبعد ، وقال : « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فإن صلاتكم معروضة على » . قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أُرِمْتَ : يعنى : بليت . قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد

(١) النجم : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الحديث : أخرجه الامام أحمد في مسنده (٤ / ١٣٥) .

(٣) الحديث : أخرجه الامام أحمد في مسنده (٢ / ٣٠٠) (٦ ، ٧١)

الأنبياء» (١) أ . هـ .

وقال « ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » أ . هـ .

وكل هذه الأحاديث ثابتة عند أهل المعرفة بحديث النبي ﷺ فالدعاء والاستغفار يصل إلى الميت عند قبره ، وهو الذي ينبغى للمسلم أن يعامل به موتى المسلمين من الدعاء لهم بأنواع الدعاء كما أن في حياته يدعو لهم .

وهذا رسول الله ﷺ أمرنا أن نصلى عليه ونسلم تسليماً في حياته ومماته ، وعلى آل بيته ، وأمرنا أن ندعو للمؤمنين والمؤمنات في محياهم ومماتهم عند قبورهم وغير قبورهم ونهانا الله أن نجعل له أنداداً ، أو نشبه بيت المخلف الذي هو قبره ببيت الله الذي هو الكعبة البيت الحرام ، فإن الله أمرنا أن نحج ونصلى إليه ، ونطوف به ، وشرع لنا أن نستلم أركانه ، ونقبل الحجر الأسود الذي جعله الله بمنزلة يمينه .

قال ابن عباس « الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه » أ . هـ . (٢)

وشرع كسوة الكعبة وتعليق الأستار عليها ، وكان يتعلق من يتعلق بأستار الكعبة كالمعلق بأذيال المستجير به ، فلا يجوز أن تضاهى بيوت المخلوقين ببيت الخالق .

ولهذا كان السلف ينهون من زار قبر النبي ﷺ أن يقبله ، بل يسلم عليه بأبى هو وأمى ﷺ ، ويصلى عليه كما كان السلف يفعلون ، فإذا

(١) الحديث : أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود (٢ / ٤٢١)

(٢) الحديث : أخرجه الديلمى فى الفردوس عن عكرمة موقوفاً ونحوه الخطيب وابن عساكر عن جابر وهو ضعيف . الجامع الصغير (١٣٩)

كان السلف أعرف بدين الله وسنة نبيه وحقوقه ، وحقوق السابقين والتابعين من أهل البيت وغيرهم ، ولم يفعلوا شيئاً من هذه البدع التي تشبه الشرك وعبادة الأوثان ، لأن الله ورسوله نهاهم عن ذلك ، بل يعبدون الله وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين كما أمر الله به ورسوله ، ويعمرون بيوت الله بقلوبهم وجوارحهم من الصلاة والقراءة ، والذكر والدعاء وغير ذلك .

فكيف يحل للمسلم أن يعدل عن كتاب الله وشريعة رسوله وسبيل السابقين من المؤمنين إلى ما أحدثه ناس آخرون إما عمداً وإما خطأ .

فخطوب حامل هذا الكتاب بأن جميع هذه البدع التي على قبور الأنبياء والسادة من آل البيت والمشايخ المخالفة للكتاب والسنة ، ليس للمسلم أن يعين عليها ، هذا إذا كانت القبور صحيحة ، فكيف وأكثر هذه القبور مطعون فيها ؟ .

وإذا كانت هذه النذور للقبور موصية فقد نهى الله عنها ورسوله والمؤمنون السابقون ، فقد قال النبي ﷺ « من نذر أن يطع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصيه » ا . هـ ^(١) .

وقال ﷺ « كفارة النذر كفارة يمين » ^(٢) ا . هـ .

فإذا كان النذر طاعة لله ورسوله مثل أن ينذر صلاة أو صوماً أو حجاً أو صدقة أو نحو ذلك ، فهذا عليه أن يفى به ، وإذا كان المنذور معصية كفراً أو غير كفر ، مثل أن ينذر للأصنام التي بالهند ، ومثلما كان المشركون ينذرون لآلهتهم ، مثل اللات التي كانت بالطائف ، والعزى التي كانت بعرفة قريباً من مكة ومناة الثالثة الأخرى التي كانت لأهل المدينة . وهذه المدائن الثلاث هي مدائن أرض الحجاز ، وكانوا ينذرون

(١) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (٦ / ٣٦)

(٢) الحديث : رواه الامام أحمد في مسنده (٤ / ١٤٤ ، ١٤٦)

لها النذور ، ويتعبدون لها ، وتوسلهم بها إلى الله في حوائجهم كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ^(١) .
ومثلما ينذر الجاهل من المسلمين لعين ماء أو بئر من الآبار أو قناه ماء أو مغارة أو حجر أو شجرة من الأشجار ، أو قبر من القبور ، وإن كان قبر نبي أو رجل صالح أو يندرون زيتاً أو شمعاً أو كسوة أو ذهباً أو فضة لبعض هذه الأشياء فإن هذا كله نذر معصية لا يوفى به .

لكن من العلماء من يقول : على صاحبه كفارة يمين . لما روى أهل السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا نذر في معصية ، وكفارته كفارة يمين » ^(٢) . وفي الصحيح عنه أنه قال : « كفارة النذر كفارة يمين » ^(٣) .

وإذا صرف من ذلك المنذور شيء في قرابة من القربات المشروعة كان حسناً مثل أن يصرف الدهن إلى تنوير بيوت الله ، ويصرف المال والكسوة إلى من يستحقه من المسلمين من آل بيت رسول الله ﷺ ، وسائر المؤمنين ، وفي سائر المصالح التي أمر الله بها ورسوله .

وإذا اعتقد بعض الجاهل أن بعض هذه النذور المحرمة قد قضت حاجته بجلب المنفعة من المال والعافية ونحو ذلك أو بدفع المضرة من العدو ونحوه ، فقد غلط في ذلك ، فقد صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال « إنه لا يأتي بخير ، ولكنه يستخرج به من البخيل » أ . هـ ^(٤) . فعقد النذر مكروه وإن كان الوفاء به واجباً إذا كان المنذور طاعة لله ورسوله ﷺ .

(١) ٢ : الزمر .

(٢) الحديث رواه الامام احمد في مسنده (٦ / ٢٤٧)

(٣) الحديث : تقدم

(٤) الحديث : رواه الامام احمد في مسنده (٢ / ٨٦)

وقد أخبر النبي ﷺ أن النذر لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل ، وهذا المعنى قد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه ، فيما كان قربة محضة لله ، فكيف بنذر فيه شرك فإنه لا يجوز نذره ولا الوفاء به .

وهذا وإن كان قد عمر الإسلام وكثر العكوف على القبور التي هي للصالحين من أهل البيت وغيرهم ، فعلى الناس أن يطيعوا الله ورسوله ، ويتبعوا دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ ولا يشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، فإن الله إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله ، وليعبدوا الله وحده لا شريك له .

كما قال تعالى ﴿ وَسَعَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى في حق الذين كانوا يدعون الملائكة والنبیین ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ^(٤) .
 وَلِلَّهِ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيَّ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ^(٥) .

(١) : ٤٥ : الزخرف .

(٢) : ١٣ : الشورى .

(٣) : ٣٦ : النحل .

(٤) : ٥٦ : الإسراء .

وقال ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

ورد على من اتخذ شفعاء من دونه فقال ﴿ أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْعًا وَلَا يَعْقِلُونَ . قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢).

وقال ﴿ آتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

وقال تعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٤).
وقال ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْعًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٥).

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَتْهُ ﴾ (٦).
وقال ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (٧).

(١) : ٨٠ آل عمران .

(٢) : ٤٦ الزمر .

(٣) : ٣١ التوبة .

(٤) : ٢٥٥ البقرة .

(٥) : ٢٦ النجم .

(٦) : ٢٨ الأنبياء .

(٧) : ٢٢ سبأ .

وكتب الله من أولها إلى آخرها تأمر بإخلاص الدين لله ، لاسيما الكتاب الذى بعث به محمد ﷺ أو الشريعة التى جاء بها ، فإنها كملت الدين ، قال تعالى ﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١) .

وقال ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقد جعل قوام الأمر بالإخلاص لله ، والعدل فى الأمور كلها ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّ بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٣) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿ (٣) أ . هـ .

ولقد خلص النبى ﷺ التوحيد من دقيق الشرك وجليله حتى قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذى وصححه .

وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وهذا مشهور فى الصحاح .

وقال : « لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد » أ . هـ .

وقال له رجل : ما شاء الله وشئت ، فقال : أ جعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده . وروى عنه أنه قال « الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديبب النمل » . وروى عنه أن الرياء شرك .

(١) ٣ : المائدة .

(٢) ١٨ : الجاثية

(٣) ٢٩ : الأعراف

وقال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١)

وعلم بعض أصحابه أن يقول « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم » أ . ه .

ومن هذا الباب الذين يسألون الصدقة أو يعطونها لغير الله ، مثل من يقول : لأجل فلان ، إما بعض الصحابة ، أو بعض أهل البيت ، حتى يتخذ السؤال بذلك ذريعة إلى أكل أموال الناس بالباطل ، ويصير قوم ممن ينتسب إلى محبة آل البيت يعطى الناس ، وآخرون ممن ينتسب إلى السنة يعطى الآخرين ، والشيطان قد استحوذ على الجميع ، فإن الصدقة وسائر العبادات لا يشرع أن تفعل إلا لله ، كما قال تعالى :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكُْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ ﴾ (٤)

وقال ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ (٥)

(١) ١١٠ : الكهف .

(٢) ٢١ - ١٧ : الليل .

(٣) ٣٩ : الروم .

(٤) ٢٦٥ : البقرة .

(٥) ٩ : الإنسان .

وقال تعالى كلمة جامعة ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ ^(١) .

وعبادته تجمع الصلاة وما يدخل فيها من الدعاء والذكر ، وتجمع
الصدقة والزكاة بجميع الأنواع من الطعام واللباس والنقد وغير ذلك .

والله يجعلنا وسائر إخواننا المؤمنين مخلصين له الدين ، نعبده
ولا نشرك به شيئاً ، معتصمين بحبله ، متمسكين بكتابه ، متعلمين لما
أنزل من الكتاب والحكمة ويصرف عنا شياطين الجن والإنس ، ويعيذنا
أن تفرق بنا عن سبيله ، ويهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رفيقاً ..

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً
كثيراً .

(١) ٥ : البينة .

ثانياً
رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص

رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص

من أحمد بن تيمية إلى سرجوان عظيم أهل ملته ، ومن تحوط به عنايته
من رؤساء الدين ، وعظماء العيش والرهبان والأمراء والكتاب واتباعهم
سلام على من اتبع الهدى

أما بعد / فأنا نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو إله إبراهيم وآل
عمران ، ونسأله أن يصلى على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين ويخص
بعملائه وسلامه أولى العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم الذين
خصوا بأخذ الميثاق ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ،
ومحمد ، كما ساءهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل « شرع لكم من
الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم ،
وموسى ، وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على
المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من
ينيب » .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ
وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ
صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) .

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين ، وخطيبهم
إذا وفدوا على ربهم ، وامامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق يوم
القيامة ، نبى الرحمة ، ونبى الملحمة ، الجامع محاسن الأنبياء ، الذى
بشر به عبد الله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى الصديقة الطاهرة
البتول ، التى لم يمسهها بشر قط « مريم ابنة عمران » ذلك مسيح الهدى
عيسى بن مريم ، الوجه فى الدنيا والآخرة ، المقرب عند الله ، المنعوت

بعوت الجمال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة . وبعث الخاتم الجامع بنعت الكمال ؛ المشتمل على الشدة على الكفار ، والرحمة بالمؤمنين . والمحتوى على محاسن الشرائع والمناهج التى كانت قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين . وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

أما بعد : فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذي خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته . وأصل ذلك هو معرفته ومحبته . فمن هداه الله صراطه المستقيم آتاه رحمة ، وعلماً ومعرفة باسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الانابة إليه ، والوجل لذكره ، والخشوع له ، والتأله له : فحن إليه حنين النصور إلى أوكارها . وكلف بحبه كلف الصبى بامه ، لا يعبد إلا إياه رغبة ، ورهبة ، ومحبة ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، رب الأولين والآخرين . مالك يوم الدين . خالق ما تبصرون وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة ، الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون . لم يتخذ من دونه أنداداً ، كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يتخذ من دونه ولياً ، ولا شفيعاً ؛ لا ملكاً ، ولا نبياً ، ولا صديقاً ؛ فإن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً . فهنالكَ اجتباه مولاه واصطفاه وآتاه رشده . وهداه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ؛ إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والاخلاص ، كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر - عليه السلام - حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان - بدعة من تلقاء أنفسهم - لم ينزل الله بها كتاباً ، ولا أرسل بها رسولا ؛ بشبهات زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة . والفلسفة الحائدة . قوم منهم زعموا أن التماثيل

طلاسم الكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية .
وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين . وقوم
جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين ، وقوم على مذاهب
آخر .

واكثرهم لرؤسائهم مقلدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون . فابتعث
الله نبيه نوحا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،
وينهاهم عن عبادة ما سواه ؛ وان زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى
الله زلفى ، ويتخذوهم شفعاء . فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين
عاما ، فلما أعلمه الله انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن دعا
عليهم ، فغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته ، وجاءت الرسل بعده
تتربى . إلى أن عم الأرض دين الصابئة والمشركين ؛ لما كانت النহারدة
والفراعة ملوك الأرض شرقا وغربا .

فبعث الله تعالى إمام الحنفاء ، وأساس الملة الخالصة ، والكلمة
الباقية : إبراهيم خليل الرحمن . فدعا الخلق من الشرك إلى
الاخلاص . ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وقال : ﴿ وَجَّهْتُ
وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١)
وقال لقومه ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ
عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(٢) وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم :

﴿ إِنَّا بَرَاءٌ أَوْلَانِكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾^(٣) .

(١) ٧٩ : الأنعام .

(٢) ٧٥ - ٨٢ الشعراء .

(٣) ٤ : الممتحنة .

فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته ، وجعل لكل منهم خصائص ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات . وآتى كلا منهم من الآيات ما آمن صلى مثله البشر . فجعل لموسى العصا حية ، حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصى ، وكانت شيئاً كثيراً ، وفلق له البحر حتى صار يابسا ، والماء واقفاً حاجزاً بين اثني عشر طريقاً ، على عدد الاسباط ، وأرسل معه القمل ، والضفادع ، والدم ، وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم ، وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المن والسلوى ، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر ، فانفتحت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم .

وبعث بعد أنبياء من بنى إسرائيل : منهم من أحيى الله على يده الموتى . ومنهم من شفى الله على يده المرضى . ومنهم من أطلعه على ما شاء من غيبة . ومنهم من سخر له المخلوقات . ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات .

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل ، وفي الكتب التى بأيدي اليهود والنصارى ، والنبوات التى عندهم ، وأخبار الأنبياء عليهم السلام : مثل شعيا ، وأرميا ، ودانيال ، وحبقوق ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم ، وكتاب « سفر الملوك » وغيره من الكتب : ما فيه معتبر .

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية ، عاصية : تارة يعبدون الأصنام والأوثان . وتارة يعبدون الله . وتارة يقتلون النبيين بغير الحق . وتارة يستحلون محارم الله بأذن الحيل . فلعنوا أولاً على لسان داود ؛ وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم .

ثم بعث الله المسيح بن مريم رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وجعله وأمه آية للناس ؛ حيث خلقه من غير أب ؛ إظهاراً لكمال قدرته ، وشمول كلمته ، حيث قسم النوع الانسانى الاقسام الأربعة . فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى .

وخلق المسيح بن مريم من أنثى بلا ذكر . وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والانثى . وآتى عبده المسيح من الآيات البيّنات ما جرت به سنته : فأحى الموتى ، وأبرأ الأكمة والأبرص ، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ودعا إلى الله وإلى عبادته ، متبعا سنة اخوانه المرسلين ، مصدقا لمن قبله ، ومبشراً بمن يأتى بعده .

وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا ، وكان غالب أمرء اللين والرحمة ، والعفو والصفح ، وجعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، وجعل منهم قسيسين ورهباناً . فتفرق الناس فى المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب :

قوم كذبوه وكفروا به ، وزعموا انه ابن بغي ، ورموا أمه بالفرية ونسبوه إلى يوسف النجار ، وزعموا ان شريعة التوراة لم ينسخ منها شىء ، وان الله لم ينسخ ما شرعه ، بعد ما فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الأصار فى النجاسات والمطاعم .

وقوم غلوا فيه ، وزعموا انه الله ، او ابن الله . وأن اللاهوت تدرع الناسوت ، وأن رب العالمين نزل ، وأنزل ابنه إسماعيل ويقتل : فداء الخطيئة آدم عليه السلام ، وجعلوا الاله الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . قد ولد ، واتخذ ولداً ؛ وأنه إله ، حي ، عليم ، قدير ، جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم ، وأن الواحد منها أقنوم الكلمة ، وهى العلم ، هى تدرعت الناسوت البشري ، مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرين ؛ إلا إذا جعلوه ثلاثة إلهات متباينة . وذلك ما لا يقولونه .

وتفارقوا فى التثليث والاتحاد تفرقا ، وتشتوا تشتتا ؛ لا يقربه عاقل . ولم يجيء نقل إلا كلمات متشابهات فى الانجيل وما قبله من الكتب ، قد بيتهها كلمات محكمات فى الإنجيل وما قبله ، كلها تنطق بعبودية المسيح ، وعبادته لله وحده ، ودعائه ، وتضرعه .

ولما كان اصل الدين هو الإيمان بالله ورسوله ، كما قال خاتم النبيين والمرسلين : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » وقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » كان أمر الدين توحيد الله والاقرار برسله ؛ ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبراهمة ونحوهم من منكري النبوات مشركين بالله في إقرارهم وعبادتهم ، وفاسدى الاعتقاد فى رسله .

فأرباب التثليث فى الوحداية والاتحاد فى الرسالة قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ما هو بين بفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وبكتب الله التى أنزلها .

ولهذا كان عامة رؤسائهم - من القسيسين ، والرهبان ، وما يدخل فيهم من البطارقة ، والمطارنة ، والاساقفة - إذا صار الرجل منهم فاضلاً مميّزاً فإنه ينحل عن دينه ، ويصير منافقاً للملك أهل دينه ، وعامتهم رضى بالرياسة عليهم ، وبما يناله من الحظوظ ؛ كالذى كان لبيت المقدس الذى يقال له « ابن البورى » والذى كان بدمشق الذى يقال له « ابن القف » والذى بقسطنطينية وهو « البابا » عندهم ، وخلق كثير من كبار الباباوات ، والمطارنة ، والاساقفة ، لما خاطبهم قوم من الفضلاء أقرؤا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى ؛ وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرياسة ، كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم ، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همة أحدهم نوع من العلم الرياضي ؛ كالمنطق ، والهيئة ، والحساب ، والنجوم ؛ او الطبيعى ، كالطب ، ومعرفة الأركان ، او التكلم فى الالهى على طريقة الصابئة الفلاسفة ، الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام : قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم ، وحفظوا رسوم الدين ، لأجل الملوك والعامّة .

وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامّة ما يظهر لكل عاقل ؛ حتى صنف الفضلاء في حيل الرهبان كتباً : مثل النار التي كانت تصنع بقمامة ، يدهنون خيطاً دقيقاً بسندروس ، ويلقون النار عليه بسرعة ، فتتزل . فيعتقد الجاهل انها نزلت من السماء ، ويأخذونها إلى البحر ، وهي صنعة ذلك الراهب ، يراه الناس عياناً ، وقد اعترف هو غيره أنهم يصنعونها .

وقد اتفق اهل الحق من جميع الطوائف على أنه لا تجوز عبادة الله تعالى بشيء ليس له حقيقة . وقد يظن المنافقون ان ما ينقل عن المسيح وغيره من المعجزات من جنس النار المصنوعة . وكذلك حيلهم في تعليق الصليب ، وفي بكاء التماثيل التي يصورونها على صورة المسيح وأمه وغيرهما ونحو ذلك : كل ذلك يعلم كل عاقل انه افك مفترى ، وأن جميع انبياء الله وصالحى عباده برآء من كل زور وباطل وإفك ، كبرائتهم من سحر سحرة فرعون .

ثم ان هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون الله بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها ؛ مع أنهم يأمرّون بالتمسك بالتوراة ؛ إلا ما نسخه المسيح . قصر هؤلاء في الأنبياء حتى قتلوهم . وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم ، وعبدوا تماثيلهم . وقال أولئك : ان الله لا يصلح له ان يغير ما أمر به فينسخه ؛ لا في وقت آخر ، ولا على لسان نبى آخر . وقال هؤلاء : بل الأحبار والقسيسون يغيرون ما شاءوا ، ويحرمون ما رأوا ، ومن أذنب ذنباً وضعوا عليه ما رأوا من العبادات ، وغفروا له . ومنهم من يزعم انه ينفخ في المرأة من روح القدس ، فيجعل البخور قرباناً . وقال أولئك : حرم علينا أشياء كثيرة . وقال هؤلاء : ما بين البقة والفيل حلال : كل ما شئت ، وتقع ما شئت . وقال أولئك : النجاسات مغلظة ؛ حتى ان الحائض لا يقعد معها ولا يؤكل معها . وهؤلاء يقولون : ما عليك شيء نجس ، ولا يأمرّون بختان ، ولا غسل من جنابة ، ولا إزالة نجاسة ؛ مع ان المسيح والحواريين كانوا على شريعة

التوراة .

ثم ان الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون ؛ وإنما ابتدعها قسطنطين أو غيره .

وكذلك الصليب إنما ابتدعه قسطنطين برأيه ، وبمنام زعم انه رآه .
واما المسيح والحواريون فلم يأمرؤا بشيء من ذلك .

والدين الذي يتقرب العباد به إلى الله لابد ان يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه ؛ وإلا فالبدع كلها ضلالة . وما عبدت الأوثان الا بالبدع .

وكذلك إدخال الألحان في الصلوات لم يأمر بها المسيح ، ولا الحواريون .

وبالجملة فعمامة انواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً ، ولا بعث بها رسولا ؛ لكن فيهم رافة ورحمة . وهذا من دين الله ؛ بخلاف الأولين ؛ فإن فيهم قسوة ومقتا ، وهذا مما رحمه الله تعالى ، لكن الأولون لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر . والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله .

ثم ان هاتين الأمتين تفرقتا احزابا كثيرة في أصل دينهم ، واعتقادهم في معبودهم ورسولهم . هذا يقول : ان جوهر اللاهوت والناسوت صارا جوهرأ واحداً ، وطبيعة واحدة ، وأقنوماً واحداً . وهم اليعقوبية ، وهذا يقول : بل هما جوهران ، وطبيعتان ، وأقنومان . وهم النسطورية . وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه وهم الملكانية .

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين ، وما في التوراة والزبور والانجيل من مواضع لم يدبروها ، وكذلك الحواريون . فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعث النبي الذي بشر به المسيح

ومن قبله من الأنبياء ، داعياً إلى ملة إبراهيم ، ودين المرسلين قبله
وبعده ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولخلاص الدين كله لله ،
وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك : دقه ،
وجله ، بعد ما كانت الأصنام تعبد في أرض الشام وغيرها في دولة بني
إسرائيل ، ودولة الذين قالوا : انا نصارى . وأمر بالايان بجميع كتب
الله المنزلة ، كالتوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان . وبجميع
أنبياء الله من آدم إلى محمد .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ
إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٦﴾ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا
آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهَتُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَبِّحْهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٨﴾ ۞ ﴿١﴾

وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل ، فقال
تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْعًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٢٩﴾ ۞ وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا
رَبِّنِيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿١٣٠﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا
الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ ۞ ﴿٣﴾
وأمره أن تكون صلاته وحجه إلى بيت الله الحرام ، الذي بناه خليله

(١) : ١٣٥ البقرة

(٢) : ٦٤ آل عمران

(٣) : ٨٠ ، ٧٩ آل عمران .

إبراهيم أبو الأنبياء وامام الحنفاء ، وجعل أمته وسطا فلم يغفلوا في الأنبياء كغلو من عدلهم بالله ، وجعل فيهم شيئا من الالهية ، وعبدتهم ، وجعلهم شفعاء . ولم يحفوا جفاء من آذاهم ، واستخف بحرماهم ، وأعرض عن طاعتهم ؛ بل عزروا الأنبياء - أي عظموهم ونصروهم - وآمنوا بما جاءوا به ، وأطاعوهم ، واتبعوهم ، واثموا بهم ، وأحبوهم ، وأجلوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ، فلم يتكلوا إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به ، مخلصين له الدين ، حنفاء .

وكذلك في الشرائع . قالوا ما أمرنا الله به اطعناه ، وما نهانا عنه انتهينا ، وإذا نهانا عما كان أجله - كما نهى بنى إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب - أو أباح لنا ما كان حراما - كما أباح المسيح بعض الذي حرم الله على بنى إسرائيل - سمعنا وأطعنا .

وأما غير سئل الله وأنبيائه فليس لهم ان يبدلوا دين الله ، ولا يبتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله . والرسول إنما قالوا تبليغا عن الله ؛ فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

وتوسطت هذه الأمة في الطهارة والنجاسة ، وفي الحلال والحرام ، وفي الأخلاق . ولم يجردوا الشدة كما فعله الأولون ، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخرون ، بل عاملوا أعداء الله بالشدة ، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة ، وقالوا في المسيح ما قاله سبحانه وتعالى ، وما قاله المسيح والحواريون ؛ لا ما ابتدعه الغالون والجافون .

وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين انه يبعث من أرض اليمن ، وانه يبعث بقضيب الأدب ، وهو السيف . وأخبر المسيح أنه يجيء بالبينات والتأويل . وان المسيح جاء بالأمثال . وهذا باب يطول شرحه .

وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله ، لما بلغنى ما عنده من الديانة والفضل ، ومحبة العلم وطلب المذاكرة ، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكراً من الملك : من رفقه ، ولطفه ، وإقباله عليه ، وشاكراً من القسيسين ونحوهم .

ونحن قوم نحب الخير لكل احد ، ونحب ان يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ؛ فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة اعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ؛ فإنه لا بد للعبد من لقاء الله ، ولا بد إن الله يحاسب عبده ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسِلِينَ ﴾ ^(١) .

وأما الدنيا فأمرها حقير ، وكبيرها صغير . وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال . وغاية ذي الرياسة ان يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليم انتقاماً منه . وغاية ذي المال ان يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . لما آذى نبي الله موسى .

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين ، كلها تأمر بعبادة الله ، والتجرد للدار الآخرة ، والاعراض عن زهرة الحياة الدنيا .

ولما كان أمر الدنيا خسيساً رأيت ان أعظم ما يهدى لعظيم قومه المفاتحة في العلم والدين : بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله . والكلام في الفروع مبني على الأصول . وانتم تعلمون ان دين الله لا يكون بهوى النفس ، ولا بعبادات الآباء واهل المدينة ، وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل ، وفي ما انفق الناس عليه ، وما اختلفوا فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح ، والعمل الصالح ، وان كان لا يمكن الانسان ان يظهر كل ما في نفسه لكل احد : فينتفع هو بذلك القدر .

وإن رأيت من العلم ولسير كانه ، وجاوبته عن مسائل يسألها ، وقد كان خطري أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ؛ فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة ، ومحمد خاصة : ما أيد به دينه ، وأذل الكفار والمافقين . ولما قدم مقدم المغول غازان واتباعه إلى دمشق ، وكان قد انتسب إلى الاسلام ؛ لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه ؛ حيث لم يلتزموا دين الله ، وقد اجتمعت به وبأمرائه ، وجرى لي معهم فصول يطول شرحها ، لا بد أن تكون قد بلغت الملك ؛ فأذله الله وجنوده لنا ، حتى بقينا نضربهم بأيدينا ، ونصرخ فيهم بأصواتنا . وكان معهم صاحب سيس مثل اصغر غلام يكون ، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ، ويشتمه ، وهو لا يجترئ أن يجاوبه ، حتى أن وزراء غازان ذكروا ما يتم عليه من فساد النية له ، وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل ، واخبرني التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه ، حيث مناكم بالغرور ، وكان التتار من اعظم الناس شتيمة لصاحب سيس ، وإهانة له ؛ ومع هذا فانا كنا نعامل اهل ملتكم بالاحسان إليهم ، والذب عنهم .

وقد عرف النصارى كلهم أنى لما خاطبت التتار في اطلاق الاسرى ، وأطلقهم غازان ، وقطلو شاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين . قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لا يطلقون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ؛ فانا نفتكهم ، ولا ندع أسيراً ، لا من اهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، واطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا واحساننا ، والجزاء على الله .

وكذلك السبى الذى بأيدينا من النصارى يعلم كل احد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم ؛ كما أوصانا خاتم المرسلين حيث قال فى آخر

حياته : « الصلاة ، وما ملكت ايمانكم » قال الله تعالى في كتابه ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ^(١)

ومع خضوع التتار لهذه الملة ، وانتسابهم إلى هذه الملة ؛ فلم نخادعهم ، ولم ننافقهم ، بل بينا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الاسلام الموجب لجهادهم ، وان جنود الله المؤيدة ، وعساكره المنتصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية : ما زالت منصوره على من ناولها ، مظفرة على من عاداها . وفي هذه المدة لما شاع عند العامة ان التتار مسلمون ، امسك العسكر عن قتالهم ، فقتل منهم بضعة عشر الفا ، ولم يقتل من المسلمين مائتان . فلما انصر العسكر إلى مصر ، وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد ، وعدم : خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد ، قد ملات السهل والجبل ؛ في كثرة ، وقوة ، وعدة ، وإيمان ، وصدق ، قد بهرت العقول والألباب . محفوفة بملائكة الله التي ما زال يمد بها الأمة الحنيفة ، المخلصة لبارئها : فانهمز العدو بين ايديها ، ولم يقف لمقابلتها . ثم أقبل العدو ثانيا ، فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيول ، وانصرف خاسئاً وهو حسير ، وصدق الله وعده ، ونصر عبده . وهو الآن في البلاء الشديد والتعكيس العظيم ، والبلاء الذي أحاط به ، والاسلام في عز متزايد ، وخير مترافد ، فإن النبي ﷺ قد قال : « ان الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها امر دينها » . وهذا الدين في اقبال وتجديد . وأنا ناصح للملك وأصحابه - والله الذي لا إله إلا هو الذي انزل التوراة والانجيل والفرقان .

ويعلم الملك ان وفد نجران - وكانوا نصارى كلهم ، فيهم الأسقف وغيره - لما قدموا على النبي ﷺ ، ودعاهم إلى الله ورسوله ، وإلى الاسلام : خاطبوه في أمر المسيح ، وناظروه ، فلما قامت عليهم الحجة

(١) ٨ : الانسان

(٢) الحديث : اخرجه ابو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة قال السيوطي في الجامع الصغير (صحيح) (٦٧) .

جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه ان يدعوهم إلى المباهلة ، كما قال :
﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى
الْكَاذِبِينَ ^(١) ﴾ فلما ذكر النبي ﷺ ذلك استشوروا بينهم ، فقالوا : تعلمون
به نبي وأنه ما من أحد نبيا فافلح . فادوا إليه الجزية ، ودخلوا في الذمة ،
واستعفوا من المباهلة .

وكذلك بعث النبي ﷺ كتابه إلى قيصر الذي كان ملك النصارى
بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها ، وكان ملكا فاضلا . فلما قرأ
كتابه ، وسأل عن علاقته : عرف انه النبي الذي بشر به المسيح ، وهو
الذي كان وعد الله به إبراهيم في ابنه إسماعيل ، وجعل يدعو قومه
النصارى إلى متابعتة ، وإكرام كتابه ، وقبله ، ووضعوه على عينيه ،
وقال : وددت اني اخلص اليه حتى اغسل عن قدميه ، ولولا ما أنا فيه
من الملك لذهبت إليه .

وأما النجاشي ملك الحبشة النصراني ؛ فإنه لما بلغه خبر النبي ﷺ
من اصحابه الذين هاجروا إليه : آمن به وصدقه ، وبعث إليه ابنه ،
وأصحابه مهاجرين . وصلى النبي ﷺ عليه لما مات . ولما سمع سورة
« كهيعص » بكى . ولما أخبروه عما يقولون في المسيح قال : والله ما يزيد
عيسى على هذا مثل هذا العود . وقال : ان هذا والذي جاء به موسى
ليخرج من مشكاة واحدة .

وكانت سيرة النبي ﷺ أن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من
النصارى صار من أمته ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم . وكان له
أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمانه بمحمد . ومن لم
يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله ، كما قال في كتابه : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا

(١) : ٦١ : آل عمران .

يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١﴾

فمن كان لا يؤمن بالله ، بل يسب الله ، ويقول : انه ثالث ثلاثة ، وانه صلب . ولا يؤمن برسله ؛ بل يزعم ان الذي حمل وولد ، وكان يأكل ويشرب ، ويتغوط ، وينام : هو الله ، وابن الله . وان الله او ابنه حل فيه ، وتدرعه ، ويحجد ما جاء به محمد خاتم المرسلين ، ويحرف نصوص التوراة والانجيل ؛ فإن في الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بين ما أمر الله به وأوجبه ما فيها ، ولا بدين الحق . ودين الحق هو الإقرار بما امر الله به وأوجبه ، من عبادته ، وطاعته ، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ؛ من الدم والميتة ولحم الخنزير ، الذي ما زال حراما من لدن آدم إلى محمد ﷺ ، ما أباحه نبي قط ، بل علماء النصارى يعلمون انه محرم ، وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرغبة ، وبعضهم يمنعه العناد والعادة ونحو ذلك . ولا يؤمنون باليوم الآخر ؛ لأن عامتهم وان كانوا يقرون بقيامة الأبدان ؛ لكنهم لا يقرون بما أخبر الله به من الأكل والشرب واللباس والنكاح والنعيم والعذاب في الجنة والنار ؛ بل غاية ما يقرون به من النعيم السماع والشم . ومنهم متفلسفة ينكرون معاد الأجساد ، وأكثر علمائهم زنادقة ، وهم يضمرون ذلك ، ويسخرون بعوامهم ؛ لا سيما بالنساء والمترهين منهم : بضعف العقول . فمن هذا حاله فقد امر الله ورسوله بجهاده حتى يدخل في دين الله ، او يؤدي الجزية ، وهذا دين محمد ﷺ . ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ؛ لا سيما بجهاد الأمة الحنيفة ، ولا الحواريون بعده .

فيا أيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبى الحرير وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله . ثم أما يعلم الملك ان بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان ما لا يحصى عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم

معروفة ، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ، ولا ذو دين ؟ ! لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا أخوته ؛ فإن ابا العباس شاعر للملك ولأهل بيته كثيراً ، معترفاً بما فعلوه معه من الخير ، وإنما أقول عن عموم الرعية . أليس الأسرى في رعية الملك ؟ ! أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والاحسان . فأين ذلك ؟ ! .

هذا وأنت تعلم ان المسلمين لا ذنب لهم أصلاً ؛ بل هم المحمودون على ما فعلوه ؛ فإن الذي أطبقت العقلاء على الاقرار بفضله هو دينهم ، حتى الفلاسفة أجمعوا على انه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين . فقد قامت البراهين على وجوب متابعتة .

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم الساحل : بل وقبرص ايضا ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة ، وقد وعدهم النبي ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة . فما يؤمن الملك ان هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد ، كما ينتقم لغيرهم ؟ ! وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا منها ما نالوا من غيرها ؟ ! ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسن ، والا فمن بغى عليه لينصرنه الله .

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين ، وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن ، والمعاونة على النظر في العلم ، واتباع الحق ، وفعل ما يجب ، فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان ، ولا يرضى ان يكون من هؤلاء النصارى المقلدين ، الذين لا يسمعون ولا يعقلون ؛ ان هم إلا كالانعام ؛ بل هم أضل سبيلا .

وأصل ذلك ان تستعين بالله ، وتسأله الهداية ، وتقول : اللهم ! أرني الحق حقاً ، وأعني على اتباعه . وأرني الباطل باطلاً ، وأعني على اجتنابه ، ولا تجعله مشتبهاً علي فاتبع الهوى فأضل . وقل اللهم ! رب

جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون : اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

ثم ان كثيراً منهم إنما أخذوا غدرًا ، والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات ، فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدرًا ؟ ! أفتأمنون مع هذا ان يقابلكم المسلمون ببعض هذا ، وتكونون مغذورين ؟ ! والله ناصرهم ومعينهم ؛ لا سيما في هذه الأوقات ، والأمة قد امتدت للجهاد . واستعدت للجلاد . ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في طاعته ، وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد ، وقد ظهر بعض أثرهم ، وهم في ازدياد .

ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية ، الذين يقاتلون الملوك في فرشها . وعلى افراسها : من قد بلغ الملك خبرهم ؛ قديما ، وحديثاً . وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم ، ولا يخيب طلباتهم ، الذين يغضب الرب لغضبهم ، ويرضى لرضاهم ، وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين لما غضب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف . فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عاقل ؛ لا مسلم ، ولا معاهد ؟ ! .

والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا ؛ لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة ، وهما شيئان . (احدهما) له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ، وانكشاف الحق ، وزوال الشبهة ، وعبادة الله ، كما أمر . فهذا خير له من ملك الدنيا بحذاقيها . وهو الذي بعث به المسيح ، وعلمه الحواريين . (الثاني) له وللمسلمين ، وهو مساعدته للأسرى الذين في بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالاحسان إليهم ، والمعاونة لنا على خلاصهم ؛ فإن في الاساءة اليهم

دركا على الملك في دينه ودين الله تعالى ، ودركا من جهة المسلمين ، وفي
المعاونة على خلاصهم حسنة له في دينه ، ودين الله تعالى وعند
المسلمين ؛ وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك .

ومن العجب كل العجب ان يأسر النصارى قوماً غدرًا أو غير غدر
ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول : « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له
خدك الأيسر ، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك » ؟ ! وكلما كثرت
الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين ؛
فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين في قبرص ، سيما وعامة
هؤلاء الأسرى قوم فقراء ، وضعفاء ، ليس لهم من يسعى فيهم . وهذا
أبو العباس مع انه من عباد المسلمين ، وله عبادة ، وفقر ، وفيه
مشيخة ، ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة . ودين الإسلام
يأمرنا ان نعين الفقير ، والضعيف . فالملك أحق ان يساعد على ذلك
من وجوه كثيرة ؛ لا سيما والمسيح يوصي بذلك في الانجيل ، ويأمر
بالرحمة العامة ، والخير الشامل ، كالشمس والمطر .

والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخلص الأسرى والاحسان إليهم
كان الحظ الأوفر لهم في ذلك في الدنيا والآخرة . أما في الآخرة فإن الله
يثيب على ذلك ويأجر عليه ، وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين
الذين لا يتبعون الهوى ؛ بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا
بغير حق ، لا سيما من أخذ غدرًا ، والله تعالى لم يأمر المسيح ولا أحدا
من الحواريين ، ولا من اتبع المسيح على دينه ؛ لا بأسر أهل ملة
إبراهيم ، ولا يقتلهم . وكيف وعامة النصارى يرون بأن محمداً رسول
الأميين ؟ ! فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم .

فإن قال قائل : هم قاتلونا أول مرة . قيل : هذا باطل فيمن غدرتم
به ومن بدأتموه بالقتال . وأما من بدأكم منهم فهو معذور ، لأن الله تعالى
أمره بذلك ، ورسوله ؛ بل المسيح والحواريون أخذ عليهم المواثيق
بذلك ، ولا يستوي من عمل بطاعة الله ورسله ودعا إلى عبادته ودينه ،

وأقر بجميع الكتب والرسل ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ،
وليكون الدين كله لله ، ومن قاتل في هوى نفسه وطاعة شيطانه على
خلاف أمر الله ورسله .

وما زال في النصارى من الملوك والقسيسين والرهبان والعامّة من له
مزية على غيره في المعرفة والدين ؛ فيعرف بعض الحق ، وينقاد لكثير
منه ، ويعرف من قدر الاسلام وأهله ما يجله غيره ، فيعاملهم معاملة
تكون نافعة له في الدنيا والآخرة ، ثم في فكاك الأسير وثواب العتق من
كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ، فمهما عمل الملك
معهم وجد ثمرته .

وأما في الدنيا فإن المسلمين أقدر على المكافأة في الخير والشر من كل
أحد ، ومن حاربوه فالويل كل الويل له ، والملك لا بد أن يكون سمع
السير ، وبلغه أنه ما زال في المسلمين النفر القليل منهم من يغلب
أضعافا مضاعفة من النصارى وغيرهم ، فكيف إذا كانوا أضعافهم ؟ !
وقد بلغه الملاحم المشهورة في قديم الدهر وحديثه : مثل أربعين الفا
يغلبون من النصارى أكثر من أربعمئة الف ، أكثرهم فارس . وما زال
المرابطون بالتغور مع قتلهم واشتغال ملوك الإسلام عنهم يدخلون بلاد
النصارى ، فكيف وقد من الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم ،
وكثرة جيوشهم ، وبأس مقدميهم ، وعلو هممهم ، ورغبتهم فيما يقرب
إلى الله تعالى ، واعتقادهم أن الجهاد أفضل الاعمال المطوعة ،
وتصديقهم بما وعدهم نبيهم حيث قال : « يعطى الشهيد ست
خصال : يغفر له بأول قطرة من دمه . ويرى مقعده في الجنة . ويكسى
حلة الايمان . ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين . ويوقى فتنة
القبر . ويؤمن من الفزع الأكبر يوم القيامة » .

ثم إن في بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين ؛
قال فيهم من رؤوس النصارى من ليس في البحر مثلهم إلا قليل . وأما

أسراء المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ، ولا من ينتفعون به ، وإنما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى رحمة لهم ، وتقربا إليه يوم يجزى الله المصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين .

وأبو العباس حامل هذا الكتاب قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا واستعطف قلوبنا إليه ؛ فذلك كاتب الملك لما بلغتنى رغبته في الخير ، وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير لهم ؛ فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعونهم إلى الله ، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم . وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التي فيها طعن على بعضهم ، أو طعن على دينهم ؛ فاما أن يكون المخبر كاذبا ، أو ما فهم التأويل ، وكيف صورة الحال . وإن كان صادقا عن بعضهم بنوع من المعاصي والفواحش والظلم : فهذا لا بد منه في كل أمة ؛ بل الذي يوجد في المسلمين من الشر أقل مما في غيرهم بكثير ، والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم .

والملك وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين ، ورسائل بولص وغيره من القديسين ؛ وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر ، وأكل الخنزير ، وتعظيم الصليب ، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرّمته الشريعة النصرانية . هذا فيما يقرون به . وأما مخالفتهم لما لا يقرون به فكلهم داخل في ذلك . بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله ﷺ أن المسيح عيسى ابن مريم ينزل عندنا بالمنارة البيضاء في دمشق ، واضعاً كفيه على منكبي ملكين ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال الذي يتبعه

اليهود ، ويسلط المسلمون على اليهود ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ! هذا يهودي ورائي فاقتله . وينتقم الله للمسيح بن مريم مسيح الهدى من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بعث إليهم .

وأما ما عندنا في أمر النصارى ، وما يفعل الله بهم من ادالة المسلمين عليهم ، وتسليطه عليهم : فهذا مما لا أخبر به الملك ؛ لئلا يضيق صدره ؛ ولكن الذي أنصح به ان كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ومال إليهم كانت عاقبته معهم حسنة بحسب ما فعله من الخير ؛ فإن الله يقول : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿ (٢)

والذي أختتم به الكتاب الوصية بالشيخ أبى العباس ، بغيره من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن ، والامتناع من تغيير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله . ونحن نجزي الملك على ذلك باضعاف ما فى نفسه . والله يعلم انى قاصد للملك الخير ؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ، ونعطف على خلق الله ، وندعوهم إلى الله ، وإلى دينه ، وندفع عنه شياطين الانس والجن .

والله المسئول أن يعين الملك على مصلحته التى هى عند الله المصلحة ، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ، ونختتم له ب نائمة خير . والحمد لله رب العالمين . وصلواته على أنبيائه المرسلين . ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين ، والسلام عليهم أجمعين .

ثالثاً رسالة ابن تيمية للحث على حرب التتار

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلي على صفوته من خلقته ، وخيرته من بريته ، محمد عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ^(١) والله تعالى يحقق لنا تمام الكلام بقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ ^(٢) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ ^(٣) .

فإن هذه الفتنة التي ابتلى بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام . قد جرى فيها شبيه ما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه ، وتلى بها نبيه والمؤمنين : ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة ، فإن نصوص الكتاب والسنة ، اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي ، أو بالعموم المعنوي .

(١) ٢٥ : الأحزاب .

(٢) ٢٦ : الأحزاب .

وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة ، كما نالت أولها وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم ، لتكون عبرة لنا . فنشبه حالنا بحالهم ، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها . فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين ما كان للقافر والمنافق من المتقدمين . كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجل ذكر قصص الأنبياء . ثم قال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ ^(١) أي هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب ، وفي السير المكذوبة . وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ ^(٢) .

وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه بدر وغيرها ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى في محاصرته لبنى النضير ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَى الْأَبْصَارِ ﴾ ^(٤) .

(١) ١١١ : يوسف .

(٢) ٢٥ ، ٢٦ : النازعات .

(٣) ١٣ : آل عمران .

(٤) ٢ : الحشر .

فأخبرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة ، ومن قبلها من الأمم .

وذكر في غير موضع : أن سنته في ذلك سنة مطردة ، وعادته مستمرة .

فقال تعالى ﴿ لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْمَانًا يُقْفَوْنَ أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْبِيلًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ (١) ﴾

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَءَ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ (٢) ﴾

وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين (٣) .

فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده . ودأب الأمم وعاداتهم ، لاسيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبقت الخافقين خبرها ، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها ، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه ، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه ، وكاد فيه عمود الكتاب أن يثت ، ويحترم . وحبل الإيثار أن ينقطع ويصطلم (١) وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار ، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورا ، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهلهم أبداً وزين ذلك

(١) ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ : الأحزاب .

(٢) ٢٢ ، ٢٣ : الفتح .

(٣) فقال « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم » ١١ : آل عمران .

في قلوبهم وظنوا ظن السوء فكانوا قوماً بوراً . ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران . وأنزلت الرجل الصاحي منزل السكران ، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان ، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان ، حتى بقى للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان . وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان . من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمانه . ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية ، كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية . وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة ، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى .

فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقى وسعيد . كما يتفرون كذلك في اليوم الموعود . وفر الرجل فيها من أخيه وأمه وأبيه . إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه . وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه ، لا يلوى على ماله ولا ولده ولا عرسه . كما أن منهم من فيه قوة على تخليص أهل المال . وآخر فيه زيادة معونة لمن هو فيه ببال . وآخر منزلته منزلة الشفييع المطاع ، وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع . ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيثار والعمل الصالح . والبر والتقوى ، وبليت فيها السرائر . وظهرت الخبايا التي كانت تكتمها الضمائر وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المال . ودم ساداته وكبرائه من أطاعهم فأضلهم السبيل . كما حمد ربه من صدق في إيمانه فاتخذ مع الرسول سبيلاً . وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية ، من الأخبار بما يكون . وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون . كما تواطأت عليه المبشرات التي أربها المؤمنون . وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين . الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة .

حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب : حزب مجتهد في نصر الدين ،

وآخر خاذل له ، وآخر خارج عن شريعة الإسلام .

وأنقسم الناس ما بين مأجور ومعدور وآخر قد غره بالله الغرور وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً . ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً .

ووجه الاعتبار في هذه الحادثة العظيمة : أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وشرع له الجهاد إباحة له أولاً ، ثم إيجاباً له ثانياً لما هاجر إلى المدينة ، وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله . فغزا بنفسه ﷺ مدة مقامه بعد - الهجرة وهو نحو عشر سنين : بضعاً وعشرين غزوة . أولها بدر وآخرها تبوك . أنزل الله في أول مغاربه سورة الأنفال ، وفي آخرها سورة براءة وجمع بينهما في المصحف ، لتشابه أول الأمر وآخره . كما قال أمير المؤمنين - لما سئل عن القرآن بين السورتين من غير فصل بالبسملة ^(١) .

وكان القتال منها في تسع غزوات .

فأول غزوات القتال : بدر ، وآخرها حنين : والطائف ، وأنزل الله فيه ملائكته كما أخبر به القرآن ^(٢) . ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول ، وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً وزماناً .

فإن بدرًا كانت في رمضان ، في السنة الثانية من الهجرة ، ما بين المدينة ومكة شمالي مكة . وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة .

(١) وقد ذكر أصحاب التفاسير أقوالاً كثيرة في نزول براءة بغير بسملة راجعها في « تفسير ابن كثير » .

(٢) قال تعالى « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » التوبة :

وحنين واد قريب من الطائف ، شرقي مكة .

ثم قسم النبي ﷺ غنائمها بالجرعانة واعتمر عمرة الجعرانة .
ثم حاصر الطائف فلم يقاتله أهل الطائف زحفاً وصفوفاً وإنما قاتلوه
من وراء جدار ، فأخر غزوة كان فيها القتال زحفاً واصطفافاً : هي غزوة
حنين .

وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار ،
وقتل الله وأسر رؤوسهم ، مع قلة المسلمين وضعفهم ، فإنهم كانوا
ثلاثمائة وبضعة عشر ، ليس معهم إلا فرسان . وكان يعتقب الاثنان
والثلاثة على البعير الواحد وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات
في قوة وعدة وهيئة وخيلاء ^(١) .

فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة ^(٢) ، وفيها النبي ﷺ
وأصحابه فخرج إليهم النبي ﷺ وأصحابه في نحو من ربع الكفار ،
وتركوا عيالهم بالمدينة ، لم ينقلوهم إلى موضع آخر . وكانت أولاً الكرة
للمسلمين عليهم ، ثم صارت للكفار فانهمز عامة عسكر المسلمين إلا
نفرًا قليلًا حول النبي ﷺ . منهم من قتل . ومنهم من جرح . وحرصوا
على قتل النبي ﷺ ، حتى كسروا رباعيته ، وشجوا جبينه ، وهشموا
البيضة على رأسه ، وأنزل الله فيها نحواً من شطر سورة آل عمران من
قوله ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ ^(٣) .
قال فيها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ^(٤) .

(١) اعتقبوا البعير : أى يركبه كل واحد فترة زمنية ثم يتركه لزميله وهكذا . .

(٢) غزوة أحد .

(٣) ١٢١ : آل عمران .

(٤) ١٥٥ : آل عمران .

وكان الشيطان قد نعق في الناس ^(١) أن محمداً قد قتل . فمنهم من
تزلزل لذلك فهرب ومنهم من ثبت ، فقاتل ، فقال الله تعالى :
« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل
انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي
الله الشاكرين » ^(١) .

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي . وكانت
هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة ، وخطايا واضحة ، من
فساد النيات ، والفخر والخيلاء ، والظلم ، والفواحش والإعراض عن
حكم الكتاب والسنة ، وعن المحافظة على فرائض الله ، والبغى على
كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم .

وكان عدوهم في أول الأمر راضياً منهم بالموادعة والمسالمة ، شارعاً في
الدخول في الإسلام . وكان مبتدئاً في الإيمان والأمان ، وكانوا هم قد
أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان .

فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به
ليمحص الله الذين آمنوا ، وينبئوا إلى ربهم ، وليظهر من عدوهم
ما ظهر منه من البغى والمكر والنكث ، والخروج عن شرائع الإسلام ،
فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر ، وبعدهم ما يستوجب به الانتقام .

فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعتهم من الشر الكبير
مالو يقترون به ظفر بعدوهم - الذي هو على الحال المذكور - لأوجب لهم
ذلك من فساد الدين والدنيا مالا يوصف .

كما أن نصر الله المسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة ، وهزيمتهم يوم
أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين .
فإن النبي ﷺ قال « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له

(١) أى : أشاع فيهم .

وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له «^(١) أ . ه .
فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد ، وكان بعد أحد
بأكثر من سنة وقيل بسنتين - قد ابتلى المسلمون بغزوة الخندق ^(٢) .

كذلك في هذا العام ابتلى المؤمنون بعدوهم ، كنحوما ابتلى المسلمون
مع النبي ﷺ عام الخندق ، وهى غزوة الأحزاب التى أنزل الله فيها
سورة الأحزاب : وهى سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التى نصر الله فيها
عبدہ ﷺ ، وأعز فيها جنده المؤمنين ، وهزم الأحزاب الذين تحزبوا عليه
وحده ، بغير قتال ، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم .

ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمته وحرمة أهل بيته ،
لما كان هو النبي الذى نصره الله فيها بغير قتال كما كان ذلك في غزوتنا
هذه ، سواء وظهر فيها سر تأييد الدين ، كما ظهر في غزوة الخندق .
وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق .
وذلك أن الله تعالى منذ بعث محمداً ﷺ وأعزه بالهجرة والنصرة صار
الناس إلى ثلاثة أقسام .

قسماً مؤمنين ، وهم الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً .
وقسماً كفاراً ، وهم الذين أظهروا الكفر به .
وقسماً منافقين وهم الذين آمنوا ظاهراً لا باطناً .

ولهذا افتتح سورة البقرة بأربع آيات من صفة المؤمنين ، وآيتين في
صفة الكافرين ، وثلاث عشرة آية في صفة المنافقين .
وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب . كما دلت

(١) رواه مسلم في الزهد عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر
المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان
خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أ . ه .
(٢) وفي هذه الغزوة كان النصر من عند الله بريح أرسلها أطاحت بخيام
الكفار وما معهم حتى ظنوا إن المسلمين هاجوهم .

عليه دلائل الكتاب والسنة . وكما فسرهُ أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الحديث المأثور عنه فى الإيمان ودعائمه وشعبه .

فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أبى وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه ، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه أو المسرة بانخفاض دينه ، أو المساءة بظهور دينه ، ونحو ذلك : مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله .

وهذا القدر كان موجوداً فى زمن رسول الله ﷺ . وما زال بعده بل هو بعده أكثر منه على عهده ، لكن موجبات الإيمان على عهده أقوى . فإذا كانت مع قوتها كان النفاق موجوداً فوجوده فيها دون ذلك أولى .

وكما أنه ﷺ كان يعلم بعض المنافقين ، ولا يعلم بعضهم ، كما بينه قوله « ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » ^(١) .

كذلك خلفاؤه بعده ، وورثته قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم .

وفى المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون فى الخاصة والعامة ويسمون الزنادقة .

وقد اختلف العلماء فى قبول توبتهم فى الظاهر ، لكون ذلك لا يعلم إذ هم دائماً يظهرون الإسلام .

وهؤلاء يكثرون فى المتفلسفة ، من المنجمين ونحوهم ثم فى الأطباء ، ثم فى الكتاب أقل من ذلك .

ويوجدون فى المتصوفة والمتفقهة ، وفى المقاتلة والأمراء وفى العامة أيضاً

(١) ١٠١ : التوبة .

ولكن يوجدون كثيراً في نحل أهل البدع لا سيما الرافضة ، ففيهم من الزنادقة والباطنية ، والقرامطة ، والاسماعيلية ، والنصيرية ^(١) ، ونحوهم من المنافقين الزنادقة منتسبة إلى الرافضة .

(١) القرامطة : هم أصحاب أبي سعيد بن بهرام الحنابى القائم بالبحرين صاحب مذهب القرامطية كانوا يقولون بنبوّة عبد الله بن الحارث الكندى ويعبدونه ، وعبادتهم لم تدل على أنهم اعتقدوه بعد النبوة إلهاً وفرض عليهم سبع عشرة صلاة لنفسه في اليوم واللييلة . في كل صلاة خمس عشرة ركعة . وكان يقول بالتناسخ .

ومنهم من يقول بنبوّة نبي بعد رسول الله ﷺ ومنهم من يقول : إن علياً رضى الله عنه - والحسن والحسين ، وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على بن الحنفية وجعفر بن محمد : أنبياء كلهم . وكان المختار بن أبى عبيد منهم . وقد ادعى النبوة لنفسه فالحذر من أهل البدع .

أما الإسماعيلية : فهم المنسوبون إلى محمد بن إسماعيل - عليهما الرحمة - وليسوا على دينه ، بل قالوا : إنه الذى إليه كتم السر الباطن عندهم ، الذى أنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ - وأمره بكتمه عن الناس إلا عن وصيه وخليفته : على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قالوا : لأنه سبحانه أمره أن يختار من أمته أفضلهم ويعلمه شطر ما اطلع عليه من أنوار ذلك العلم ، فاختار علياً - رضى الله عنه - فأخبره بذلك واستكتمه أن لا يخرج منه ذلك إلا إلى من يخلفه من الأئمة المؤمنين من ذريته ، حتى انتهى ذلك إلى محمد بن إسماعيل .

وأما النصيرية : فلم ينسبوا إلى شيخ . وهم القائلون بالهية على رضى الله عنه - ويسبون فاطمة رضى الله عنها - بنت رسول الله ﷺ بكل ما هو قبيح - لعنهم الله - ويسبون الحسن والحسين رضى الله عنهما - . الخ .

وأما الباطنية : فهم الكيسانية وسميت الباطنية لقولهم : إن لكتاب الله ولسنة نبيه - ﷺ - ولكل حيوان وجماد ونحوه لغة وحركة وسكون وبواطن خفية ، وإشارات مرموزات نفيسات بخلاف ظواهرها يجرى منها مجرى الله من الكفر .

وكانوا يعتقدون تناسخ الأرواح . « بتصرف عن البرهان في معرفة قواعد أهل الأديان » انظر (٣٧ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٧) . ط دار التراث العربى .

وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار ، لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام ، بل يتركونهم وما هم عليه .

وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم في الدنيا ، واستيلائهم على الأموال ، واجترائهم على الدماء ، والسبى ، لا لأجل الدين .

فهذا ضرب النفاق الأكبر .

وأما النفاق الأصغر : فهو النفاق في الأعمال ونحوها . مثل أن يكذب إذا حدث ، ويخلف إذا وعد ، ويخون إذا ائتمن ، أو يفجر إذا خاصم .

ففى الصحيحين عن النبى ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وفى رواية صحيحة « وإن صلى ، وصام ، وزعم أنه مسلم » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف . وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » أ . هـ .

الإعراض عن الجهاد :

ومن هذا الباب الإعراض عن الجهاد . فإنه من خصال المنافقين .

قال النبى ﷺ « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » رواه مسلم .

وقد أنزل الله سورة براءة ، التى تسمى الفاضحة . لأنها فضحت المنافقين أخرجاه فى الصحيحين عن ابن عباس ، قال : « هى الفاضحة . مازالت تنزل » ومنهم ومنهم « حتى ظنوا أن لا يبقى أحد

إلا ذكر فيها » .

وعن المقداد بن الأسود قال : « هي سورة البحوث ، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين » .

وعن ابن عباس قال « هي المبعثرة » والبعثرة والإثارة متقاربان .

وعن ابن عمر « أنها الممشقة » لأنها تبرى من مرض النفاق يقال : تقشقرش المريض إذا برأ .

وقال الأصمعي : وكان يقال لسورتي الإخلاص : ^(١) الممشقتان لأنها يبرئان من النفاق .

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي ﷺ : غزوة تبوك ، عام تسع من الهجرة ، وقد عز الإسلام . وظهر . فكشف الله فيها أحوال المنافقين ووصفهم فيها بالجن ، وترك الجهاد أو وصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله ، والشح من المال . وهذان داءان عظيمان : الجن والبخل .

قال النبي ﷺ « شر ما في المرء شح هالع ، وجبن خالع » حديث صحيح ^(٢) أ . ه . ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للكفار .

كما دل عليه قوله ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ^(٣) .
وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَثَهُ جَهَنَّمَ وَيُنْسُ الْمُصِيرُ ﴾ ^(٤) .

(١) السورتان : قل يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد . .

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) ١٨٠ : آل عمران .

(٤) ١٦ : الأنفال .

وأما وصفهم بالجبن والفرع . فقال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿١﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٢﴾﴾ . (١) .

فأخبر سبحانه أنهم ، وإن حلفوا أنهم من المؤمنين ، فما هم منهم ، ولكن يفزعون من العدو ، فلو يجدون ملجأ يلجأون إليه من المعقل والحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد ، أو مغارات - وهى جمع مغارة ، ومغارات . سميت بذلك لأن الداخل يغور فيها ، أى يستتر كما يغور الماء .

أو مدخلاً : وهو الذى يتكلف الدخول اليه ، إما لضيق بابه أو لغير ذلك أى مكاناً يدخلون إليه ، ولو كان الدخول بكلفة ومشقة ، لولوا عن الجهاد إليه . وهم يجمحون . أى يسرعون إسراعاً لا يرده شىء ، كالفرس الجموح الذى إذا حمل لا يرده اللجام وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين فى حادثتنا . وفيما مثلها من الحوادث وبعدها .

وكذلك قال فى سورة محمد ﷺ « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموتى فأولى لهم » أى فبعداً لهم ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٣) . فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد .

(١) ٥٦ ، ٥٧ : سورة براءة .

(٢) ٢٠ ، ٢١ : محمد .

(٣) ١٥ : الحجرات .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (١) .

فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد ، وإنما يستأذن الذي لا يؤمن ، فكيف بالتارك من غير استئذان .

ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى .
وقال في وصفهم بالشح « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون » (٢) .

فهذه حال من أنفق كارهاً ، فكيف بمن ترك النفقة رأساً ؟ !
وقال ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٣) .

وقال « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » (٤) .

وقال في السورة ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٩﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ

(١) ٤٤ ، ٤٥ : براءة .

(٢) ٥٤ : براءة .

(٣) ٥٨ : براءة .

(٤) ٧٥ ، ٧٦ : براءة .

فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿١﴾

فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حق ، أو منعه من مستحقه من جميع الناس ، فإن الأحرار هم العلماء ، والرهبان هم العباد .

وقد أخبر أن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون - أى يعرضون ويمنعون .

يقال : صد عن الحق صدوداً . وصد غيره .
وهذا يتدرج فيه ما يؤكل بالباطل ، من وقف ، أو عطية على الدين ، كالصلاة ، والنذور التى تنذر لأهل الدين ، ومن الأموال المشتركة ، كأموال بيت المال ونحو ذلك .

فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين .
ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

فهذا يتدرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله . والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله ، سواء كان مليكاً أو مقدماً ، أو غنياً ، أو غير ذلك .

وإذا دخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب . فما كنز من الأموال المشتركة التى يستحقها عموم الأمة - ومستحقها : مصالحهم - أولى وأحرى .



فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق ، فإذا قرأ الانسان سورة الأحزاب ، وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك ؛ وجد مصداق ما ذكرنا ، وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة ، كما انقسموا في تلك ، وتبين له كثير من المستشابهات .

افتتح الله السورة ^(١) بقوله ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ^(٢) ﴾ وذكر في اثنائها قوله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ^(٣) ﴾ ثم قال ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ^(٤) ﴾

فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأن يتوكل على الله .

فبالأولى تحقق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وبالثانية تحقق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومثل ذلك قوله ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ^(٥) ﴾ وقوله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ^(٦) ﴾ .

وهذا وإن كان مأموراً به في جميع الدين ، فإن ذلك في الجهاد أوكد ، لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين وذلك لا يتم إلا بتأييد قوى من

(١) سورة الأحزاب .

(٢) ١ : الأحزاب .

(٣) ٤٨ : الأحزاب .

(٤) ٢ : الأحزاب .

(٥) ١٢٣ : هود .

(٦) ٨٨ : هود .

الله ، ولهذا كان الجهاد سنام العمل ^(١) وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة .

ففيه سنام المحبة ، كما في قوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ ^(٢) .

وفيه سنام التوكل وسنام الصبر ، فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ^(٣) وقال موسى لقومه ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤) .

ولهذا كان الصبر واليقين - اللذين هما أصل التوكل - توجبان الامامة في الدين ، كما دل عليه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ^(٥) .

ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم كما دل عليه قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(١) وفي الجهاد أيضاً : حقيقة الزهد في الحياة الدنيا ، وفي الدار الدنيا .

(١) أى عموده وأصله .

(٢) ٥٤ : المائدة .

(٣) ٤١ : النحل .

(٤) ١٢٨ : الأعراف .

(٥) ٢٤ : السجدة .

(٦) ٦٩ : العنكبوت .

وفيه أيضاً : حقيقة الاخلاص ، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله ، لا في سبيل لرياسة ، ولا في سبيل المال ، ولا في سبيل الحمية ، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا .

وأعظم مراتب الاخلاص : تسليم النفس والمال للمعبود ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ^(١) والجنة اسم للدار التي حوت كل نعيم ، أعلاه النظر إلى الله ، إلى ما دون ذلك لما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، مما قد نعرفه وقد لا نعرفه ، كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ « اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » أ . ه .

فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السور بهذا .

ثم إنه تعالى قال ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ^(٢)

وكان مختصر القصة : أن المسلمين تَخَرَّبَ عليهم عامة المشركين الذين حولهم وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين .

فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بنى أسد ، وأشجع ، وفزارة ، وغيرهم من قبائل نجد .

واجتمعت أيضاً اليهود من قريظة ، والنضير ، فإن بنى النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك ، كما ذكره الله تعالى في سورة الحشر

(١) ١١١ : التوبة .

(٢) ٩ : الأحزاب .

فجاءوا في الأحزاب إلى قريظة ، وهم معاهدون للنبي ﷺ ومجاورون له ، قريباً من المدينة ، فلم يزالوا حتى نقضت قريظة العهد ، ودخلوا في الأحزاب ، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة وهم بقدر المسلمين مرات متعددة فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء ، والصبيان في أطام المدينة ، وهي مثل الجواشق ، ولم ينقلهم إلى موضع آخر ، وجعل ظهرهم إلى سلع - وهو الجبل القريب من المدينة ، من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقاً ، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة ، وكان عدواً شديداً العداوة ، لو تمكن من المؤمنين لكانت لكاتبه فيهم اعظم النكيات .

وفي هذه الحادثة تخرب هذا العدو من فعل وغيرهم من انواع الترك ومن فرس ومستغربة ، ونحوهم من أجناس المرقدة ، ومن نصارى من الأرمن وغيرهم ، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين وهو بين الاقدام والاحجام ، مع مكة من بإزائهم من المسلمين ، ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها ، كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزار المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعاً وعشرين ليلة ، وقيل عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعاً من حلب ، ولما رجع مقدمهم الكبير قازان عين معه : يوم الاثنين حادي ، أو ثاني عشر ، جمادى الأولى ، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة ، واجتمع بهم الداعي ، وخاطبهم في هذه القضية ، وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزيمة : ألقى في قلوب عدوهم الرُّوعَ والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد ، وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله

الأحزاب عن المدينة ، كما قال الله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ^(١) ﴾ .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد ، على خلاف أكثر العادات ، حتى كره أكثر الناس ذلك ، وكنا نقول لهم : لا تكرهوا ذلك ، فإن الله فيه حكمة ورحمة .

وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله به العدو ، فإنه كثير عليهم الثلج والمطر والبرد ، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله ، وهلك أيضاً منهم من شاء الله ، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال ، حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال : لا بيعة الله وجوهنا ، عدونا في الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لا نأخذهم ؟

وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين ، لو يصف دونهم ، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة .

وقال الله في شأن الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ^(٢) ﴾

وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتي علو الشام ، وهو شمال الفرات ، وهو قبلي الفرات ، فزاغت الأبصار زيفاً عظيماً ، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء ، لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرب العدو ، وتوجهه إلى دمشق ، وظن الناس بالله الظنوننا .

(١) ٩ : الأحزاب .

(٢) ١٠ : الأحزاب .

هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام ، حتى يصطلموا أهل الشام .

وهذا يظن أنهم لو وقفوا الكسردهم كسرة ؟ وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر .

وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن ، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام .

وهذا يظن أنهم يأخذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولى عليها فلا يقف قدامهم أحد ، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها .

وهذا - إذا أحسن ظنه - قال : إنهم يملكونها لعام ، كما ملكوها عام هولاكو ، سنة سبع وخمسين ، ثم قد يخرج العسكر من مصر فسينقذها منهم ، كما خرج ذلك العام ، وهذا طن خيارهم .

وهذا يظن أن ما أضره به أهل الآثار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أمانى كاذبة ، وخرافات لاغية .

وهذا قد استولى عليه الرعب والفرع ، حتى يمر الظنون بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم .

وهذا قد تعارضت عنده الامارات ، وتقابلت عنده الارادات ، لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب ، ولا يميز في التحديث بين المخطيء والصائب ، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر ، ثم قد لا يتفطن لوجوده دلالتها الخفية ، ولا يهتدى لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادىء الرؤية .

فلذلك استوت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ، هنالك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً

شديداً ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذى يكفر به خطيئتهم ، ويرفع به درجاتهم ، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (١) .

وهكذا قالوا فى هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية ، والخلافة الرسالية ، وحزب الله المحدثون عنه ، حتى حصل لهؤلاء التأسى برسوله ﷺ ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٢) .

فأما المنافقون فقد نص التنبيه عليهم .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم فى هذه السورة ، فذكروا هنا ، وفى قوله ﴿ *لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ وفى قوله ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ ﴾ (٤) وذكر الله مرض القلب فى مواضع ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّهُتْهُمْ دِينُهُمْ ﴾ (٥) .

والمرض فى القلب كالمرض فى الجسد ، فكما ان هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت ، فكذلك قد يكون فى القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال ، من غير أن يموت القلب ، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه ، أو أفسد عمله وحرите .

وذلك - كما فسروه - هو من ضعف الايمان ، إما بضعف علم القلب

(١) ١٢ : الأحزاب .

(٢) ٢١ : الأحزاب .

(٣) ٦٠ : الأحزاب .

(٤) ٣٢ : الأحزاب .

(٥) ٤٩ : الأنفال .

واعتقاده ، وإما بضعف عمله وحركته ، فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفرع ، فإن أوطء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك ، كلها أمراض ، وكذلك الجهل والشكوك والشبهات الثمانية .

وعلى هذا قوله ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ ^(١) هو إرادة الفجور وشهوة الزنا ، كما فسروه به ، ومنه قول النبي ﷺ « وأى داء أدوى من البخل ؟ » .

وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور وقال النبي ﷺ « إنما شفاء العي السؤال » ا . هـ .
وكان يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء » .

ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه .
كما ذكر أن رجلاً شقاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة ، فقال : لو صححت لم تخف أحداً ، أى خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك .

ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخانوا حزب الشيطان ، بل لا يخافون غيره تعالى ، فقال ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ . فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) .

وقال لعموم بنى إسرائيل تنبيهاً لنا ﴿ فَلْيَأْنِي فَآرَهُبُونَ ﴾ ^(٣) وقال ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخَشُونِ ﴾ ^(٤) .

(١) ٣٢ : الاحزاب

(٢) ١٧٥ : آل عمران

(٣) ٥١ : النحل

(٤) ٤٤ : المائدة

وقال : ﴿ لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَأَخْشَوْنِي ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَسَّرَ الْإِذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَأَخْشَوْنِ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا
اللَّهَ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ (٥) . فدللت هذه الآية
- وهى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ (٦) -
على أن المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الانباء الصادقة التى
توجب كفر الانسان : من الخوف حتى يظنوا أنها كانت غروراً ، كما وقع
فى حادثتنا هذه سواء .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ
فَارْجِعُوا ﴾ (٧) .

(١) : البقرة . ١٥٠

(٢) : المائدة ٣

(٣) : التوبة ١٨

(٤) : الأحزاب ٣٩

(٥) : التوبة ١٣

(٦) : الاحزاب ٦٠

(٧) : الاحزاب ١٣

وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع^(١) ، وجعل الخندق بينه وبين العدو ، فقالت طائفة منهم : لا مقام لكم هنا ، لكثرة العدو فارجعوا إلى المدينة .

وقيل : لا مقام لكم على دين محمد ، فأرجعوا إلى دين الشرك ، وقيل : لا مقام لكم على القتال ، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم ، وهكذا لما قدم هذا العدو كان ممن المنافقين من قال : ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم ، فينبغي الدخول في دولة التتار ، وقال بعض الخاصة : ما بقيت أرض الشام تسكن ، بل ننتقل عنها ؟ إما إلى الحجاز واليمن ، وإما إلى حصر وقال بعضهم ، بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء ، كما قد استسلم لهم أهل العراق ، والدخول تحت حكمهم .

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة ، كما قيلت في تلك . وهكذا قال طائفة من المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، لأهل دمشق خاصة والشام عامة لا مقام لكم بهذه الأرض .

ونفى المقام بها أبلغ من نفي المقام ، وإن كانت قد قرئت بالضم أيضا^(٢)

فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكانة فكيف يقيم به ؟
قال الله تعالى ﴿ وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾

(١) سلع : اسم جبل تقدم

(٢) قال أبو حيان في البحر « قرأ السلمي والأعرج والبيهقي وحفص بضم الميم ، فاحتمل أن يكون مكاناً ، أى لا مكان إقامة ، واحتمل أن يكون مصدراً ، أى لا إقامة . وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء والحسن وقتادة والنخعي وعبد الله بن مسلم وطلحة وباقي السبعة بفتحها ، واحتمل أيضاً أى لا مكان قيام ، واحتمل المصدر أى لا قيام لكم » ا . هـ هامش العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥٦) .

وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١﴾ .

كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان في آطام المدينة : -
يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة . أى مكشوفة ، فليس بينها وبين العدو حائل .

وأصل العورة : الخمالى ، الذى يحتاج إلى حفظ وستر ، يقال : أعور مجلسك إذا ذهب ستره ، أو سقط جداره ، ومنه عورة العدو .
وقال مجاهد والحسن : أى ضائعة يخشى عليها السارق ، وقال قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلي العدو ، فلأنا من على أهلنا ، فائذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان .

قال الله تعالى « وما هى بعورة » لأن الله يحفظها « إن يريدون إلا فراراً » فهم يقصدون الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة .

وهكذا أصاب كثيراً من الناس فى هذه الغزاة ، صاروا يفرون من الثغر إلى المقاتل والحصون ، وإلى الأماكن البعيدة ، كمصر ، ويقولون ما مقصودنا إلا حفظ العيال ، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا ، وهم يكذبون ، فقد كان يمكنهم جعلهم فى حصن دمشق ، لودنا العدو ، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد ، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟

قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا سِيرًا ﴾ (٢) فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة - وهى الافتتان عن الدين بالكفر ، أو النفاق - لأعطو الفتنة ، ولجابر وهما من غير توقف .

(١) ١٣ : الأحزاب

(٢) ١٤ : الأحزاب

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم ، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك ، كما ساعدتهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ، ما بين ترك واجبات وفعل محرمات ، إما في حق الله ، وإما في حق العباد ، كترك الصلاة ، وشرب الخمر ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين ، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين ، وصريحهم ، وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة ، وإرجاف قلوب المسلمين منهم ، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة .

ثم قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْغُولًا ﴾ ^(١) وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا ، قديماً وحديثاً في هذه الغزوة .

فإنه في العام الماضي ، وفي هذا العام : في أول الأمر ، كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ، ثم فرّ منهزماً ، لما اشتد الأمر .

ثم قال الله تعالى ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٢) فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل ، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون .

ولذلك قال النبي ﷺ « إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ^(٣) » ا . هـ والفرار من القتل كالفرار من الجهاد .

(١) ١٥ : الأحزاب

(٢) ١٦ : الأحزاب

(٣) الحديث : أخرجه الشيخان وأحمد ومالك والنسائي . مسند الامام أحمد (٥ / ٢١٣) .

وصرف « لن » ينفي الفعل في الزمن المستقبل ، والفعل نكرة ،
والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها .

فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً
وهذا خبر الله الصادق ، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في
خبره والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن ، فإن هؤلاء الذين فروا
في هذا العام لم ينفعهم فرارهم ، بل خسروا الدين والدنيا ، وتفاوتوا في
المصائب ، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا حتى الموت
الذى فروا منه كثر فيهم ، وقل في المقيمين ، فمات مع الهرب من شاء
الله ، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ، ولا قتل ، بل
الموت قل في البلد من حين خرج الفارون ، وهكذا سنة الله قديماً
وحديثاً .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِذَا لَا تَمَتُّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) ﴾ يقول : لو كان الفرار
ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ، ثم تموتون ، فإن الموت لا بد منه .
وقد حكى عن بعض الحمقى انه قال : فنحن نريد ذلك القليل .
وهذا جهل منه بمنى الآية ، فإن الله لم يقل : إنهم يتمتعون بالفرار
قليلاً ، لكنه ذكر أنه لا منفعة منه أبداً .

ثم ذكر جواباً ثانياً ، أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع مكيل .
ثم إنه ذكر جواباً ثالثاً . وهو أن الفار يأتيه ما قضى له من المصرة
ويأتى الثابت ما قضى له من المسرة ، فقال ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ
مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ^(٢) ﴾ .

(١) ٣٦ : الأحزاب

(٢) ١٧ : الأحزاب

ونظيره : قوله في سياق آيات الجهاد ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرْوَجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(١) ، وقوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَّوْكَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) .

فمضمون الأمر : أن المنايا محتومة ، لكم ممن حضر الصفوف فسلم ، وكم ممن فر من المنية فصادفته ، كما قال خالد بن الوليد - لما اختصر - « ولقد حضرت كذا وكثراً صفاً ، وإن بيدني بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العنز ، فلا قرّت أعين الجبناء » ا . هـ .

ثم قال الله تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾^(٣) .

قال العلماء : كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة ، فإذا جاءهم أحد قالوا له : ويحك ، اجلس ، فلا تخرج ، ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر : أن ائتونا بالمدينة ، فإننا نتظركم يشبطونكم عن القتال وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً ، فيأتون العسكر لدى الناس وجوههم ، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة ، فانصرف بعضهم من عند النبي ﷺ فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ^(٤) ، فقال : أنت ههنا ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ، فقال هلم إلى ، فقد أحيط بك وبصاحبك .

(١) ٧٨ : النساء

(٢) ١٥٦ : آل عمران

(٣) ١٨ : الأحزاب

(٤) ما يتخذ من العنب .

فوصف المثبطين عن الجهاد - وهم صنفان - بأنهم إما أن يكونوا في بلد الغزاة ، أو في غيره ، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل ، أولهما ، وإن كانوا في غيره راسلوهم ، أو كاتبوهم : بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ، ليكونوا معهم بالحصون ، أو بالبعد ، كما جرى في هذه الغزاة .

فإن أقواماً في العسكر والمدينة وغيرها صاروا يعوقون من أراد الغزو ، وأقواماً بعثوا من المعازل والحصون أو غيرها إلى إخوانهم : هلم إلينا . قال الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ آبَاءَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) ، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ^(٢) ﴾ .
أي نجلاء عليكم بالقتال معكم ، والنفقة في سبيل الله ، وقال مجاهد : نجلاء عليكم بالخير والظفر والعنينة .

وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله ، أو شحَّ عليهم بفضل الله : من نصره ورزقه الذي يجزيه بفعل غيره ، فإن أقواماً يشحون بمعروفهم ، وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله ، وهم الحساد .

ثم قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَخْوَفُ رَأْيِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ^(١) ﴾ من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزاع ، فإنه يخاف ويذهل عقله ، ويشخص بصره ، ولا يطرف ، فكذلك هؤلاء ، لأنهم يخافون القتل .
﴿ فَإِذَا ذَهَبَ أَخْوَفُ سَلْقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ ^(٢) ﴾ .

ويقال في اللغة « سلقوكم » وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي ومنه « الصالقة » وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة ، يقال : صلقة ، وسلقة ،

(١) ١٨ : الأحزاب

(٢) ١٩ : الأحزاب

(٣) ١٩ : الأحزاب

وقد قرأ طائفة من السلف بها ، لكنها خارجة عن المصحف - إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً ، ويقال : خطيب مسلاق ، إذا كان بليغاً في خطبته ، لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير ، كما « بالسنة حداد » أشحة على الخير » وهذا السلق بالألسنة الحادة .

وهذا يكون بوجوده ، تارة يقول المنافقون للمؤمنين : هو الذى جرى علينا بشؤمكم فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين ، وقاتلتهم عليه ، وخالصتموهم فان هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة .

وتارة يقولون : أتته الذين أشرتم علينا بالمقام هنا ، والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت ، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا .

وتارة يقولون - أتته مع قلتكم وضعفكم - تريدون أن تكسروا العدو ، وقد غركم دينكم ، كما قال تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(١) .

وتارة يقولون : انتم مجانين ، لا عقل لكم ، تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم .

وتارة يقولون : أنواعاً من الكلام المؤذى الشديد ، وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أى صراص على الغنيمة والمال الذى قد حصل لكم .

قال قتادة : إن كان وقت قسمة الغنيمة ، بسطوا ألسنتهم فيكم . يقولون : اعطونا ، فلستم أحق بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذ لهم للحق ، وأما عند الغنيمة فأشح قوم . وقيل : أشحة على الخير ، أى بخلاء به ، لا ينعفون ، لا بنفوسهم ولا بأموالهم .

وأصل الشح : شدة الحرث الذى يتولد عنه البخل والظلم : من منع الحق ، وأخذ الباطل ، كما قال النبى ﷺ « إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ^(١) » ا . ه .

فهؤلاء أشحاء على إخوانهم ، أى بخلاء عليهم ، وأشحاء على الخير أى حراص عليه ، فلا ينفقونه ، كما قال ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ^(٢) 》 .

ثم قال تعالى ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْنَ أَنْهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ^(٣) 》 .

فوصفهم بثلاثة أوصاف :

أحدها : أنهم لفرط خوضهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد ، وهذه حال الجبان الذى فى قلبه مرض ، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف ، وتكذيب خبر الأمن .

الثانى : أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم ، بل يكونون فى البادية بين الأعراب ، يسألون عن أنبائكم : إيش خبر المدينة ؟ وإيش جرى للناس ؟

(١) أخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو قال السيوطى فى الجامع الصغير

(صحيح) (١٠٤) .

(٢) ٨ : العاديات .

(٣) ٢٠ : الأحزاب .

الثالث : أن الأحزاب إذا أتوا ، وهم فيكم ، لم يقاتلوا إلا قليلاً وهذه الصفات الثلاثة منطقية على كثير من الناس في هذه الغزوة ، كما يعرفونه من أنفسهم ويعرفه منهم من خيرهم .

ثم قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾^(١) .

فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو ، كما ابتلى رسول الله ﷺ ، فلهم فيه أسوة حسن ، حيث أصابهم مثل ما أصابه ، فليتأسوا به في التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها ، وإهانة له ، فإنه لو كان كذلك ما ابتلى بها خير الخلائق ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك . فيكون في حقه عذاباً ، كالكفار والمنافقين .

ثم قال تعالى ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۖ ﴾^(٢)

قال العلماء : كان الله قد أنزل في سورة البقرة ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾^(٣)

(١) ٢١ : الأحزاب .

(٢) ٢٢ : الأحزاب .

(٣) ٢١٤ : البقرة .

فبين الله سبحانه - منكرا على من حسب خلاف ذلك - أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم وبالبأساء ، وهى الحاجة والفاقة « الضراء » وهى الوجع والمرض ، و « الزلزال » وهى زلزلة العدو .

فما جاء الأحزاب عام الخندق ، فرأوهم ، قالوا ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾^(١) وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال ، وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليماً لحكم الله وامره .

وهذه حال أقوام فى هذه الغزوة ، قالوا ذلك .

وكذلك قوله ﴿ مَنِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ أى عهده الذى عاهد الله عليه ، فقاتل حتى قتل ، أو عاش .

« والنحب » النذر والعهد ، وأصله من النحب ، وهو الصوت ، ومنه : الانتحاب فى البكاء ، وهو الصوت الذى تكلم به فى العهد .

ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق فى اللقاء - ومن صدق فى اللقاء فقد يقتل - صار يفهم من قوله « قضى نجه » أنه استشهد لا سيما إذا كان النحب : نذر الصدق فى جميع المواطن ، فإنه لا يقضيه إلا بالموت ، وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد ﴿ مَنِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾^(٢) .

أى اكمل الوفاء ، وذلك لمن كان عهده مطلقاً بالموت ، أو القتل .

« ومنهم من ينتظر » قضاءه ، إذا كان قد وفى البعض ، فهو ينتظر تمام العهد . وأصل القضاء : الاتمام والاكمال .

(١) ٢٢ : الأحزاب .

(٢) ٢٣ : الأحزاب .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١) .

بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزى الصادقين بصدقهم حيث صدقوا في أيمانهم ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) ، فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين ، وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم : آمنا : لا من قال ، كما قالت الأعراب « آمنا » والإيمان لم يدخل في قلوبهم ، بل انقادوا واستسلموا .

وأما المنافقون فهم بين أمرين : إما أن يعذبهم ، وإما أن يتوب عليهم ، فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزوة .

وأيضاً فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة ، ليجزى الصادقين بصدقهم وهم الثابتون الصابرون ، لينصروا الله ورسوله ، ويعذب المنافقين إن شاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ .

ونحن نرجوا من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المؤمنين ، فإن منهم من ندم ، والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وقد « فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنة ، لا يغلقه حتى تطلع الشمس من قبله » (٣) أهـ .

وقد ذكر أهل المغازي - منهم ابن اسحاق - أن النبي ﷺ قال في الخندق : « الآن نغزوهم ، ولا يَغْزُونَا » فما غزت قريش ولا غطفان (٤) ، ولا اليهود المسلمين بعدها ، بل غزاهم المسلمون ،

(٢) ٢٤ : الأحزاب .

(٣) ١٥ : الحجرات .

(١) أخرجه البخاري في التاريخ عن صفوان بن عسال أنظر الجامع الصغير للسيوطي (٢١٥)

(٢) غطفان : اسم مكان وينسب إليه غزوة إسلامية .

ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة .

كذلك إن شاء الله ، هؤلاء الأحزاب من المضل وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة ، والنصارى ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام . الآن تغزوهم ولا يغزونا ، ويتوب الله على من شاء من المسلمين ، الذين خالط قلوبهم حرص أو نفاق ، بأن ينيبوا إلى ربهم ويحسن ظنهم في الإسلام ، وتقوى عزيمتهم على جهاد عودهم .

فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولى الأبصار ، كما قال « ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »^(١) فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا : ريح شديدة باردة ، وبما فرق به بين قلوبهم حتى شتت شملهم ، ولم ينالوا خيراً ، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء على الرسول والصحابة ، كما كان هم هذا العدو وفتح الشام والاستيلاء على من بها من المؤمنين ، فردهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم ، والبرد الشديد ، والريح العاصف ، والجوع المزعج ، ما الله به عليم .

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة ، وكنا نقول لهم : هذا فيه خيرة عظيمة ، وفيه الله حكمة وسر فلا تكرهوه ، فكان من حكمته : أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده ، حتى أهلكهم ، وهو كان فيما قيل : سبب رحيلهم ، وابتلى به المسلمون ليتبين من يصبر على الله وحكمه ممن يعز عن طاعته وجهاد عدوه .

وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضى حلب :

(١) ٢٥ : الأحزاب .

يوم الاثنين حادى عشر جمادى ، يوم دخلت مصر عثيب العسكر ، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين ، وألقى الله فى قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه ، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو ، جزاء منه ، وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها ، وإن لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار .

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج ، وألقى بينهم تباضاً وتعادياً كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان ، وبين اليهود ، كما ذكر ذلك أهل المغازى .

فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق ، بل من طالعتها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازى ، مثل غزوة بن الزبير ، والزهرى ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموى ، ومحمد بن عائد ، ومحمد بن اسحاق ، والواقدى وغيرهم . ثم تبقى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم ، مضافاً إلى عسكر حماة وحلب ، وما هنالك ، وثبت المسلمون بازائهم ، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن فى ضعف شديد ، تقربوا إلى حماة ، وأذهبهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط ، وصار من المسلمين من يريدون الاقدام عليهم ، فلم يوافقهم غيره ، فجرت مناوشات صفار ، كما قد كان يجرى فى غزوة الخندق ، حيث قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه فيها عمرو بن ود العامرى لما اقتحم الخندق ، وهو نفر قليل من المشركين .

وكذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون ، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين ، وما من حرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم ، وساق المسلمون خلفهم فى آخر النوبات ، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات ، وبعضهم فى جزيرة فيها ، فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم وخالطوهم ، وأصاب

المسلمون بعضهم ، وقيل : إنه غرق بعضهم .

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب ، بعد أن جرى ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور : رخبات رولكات صغار ، وغرضاً على الذهاب إلى حماة غير مرة ، لأجل الغزاة ، لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الدين بقوا وثبت بازائهم المقدم الذى يحماه ، ومن معهم من العسكر ، ومن أتاه من دمشق ، وعزموا على لقائهم ، ونالوا أجراً عظيماً ، وقد قيل : إنهم كانوا عدة لحنانات ، إما ثلاثة أو أربعة .

وكان من المقدّر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون ، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل « تيزين ^(١) » و « النوعة ^(٢) » و « مصرّة عصرين ^(٣) » وغيرهما ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضى .

وقيل : إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم ؛ بسبب الرفض ، وأن عند بعضهم مزامين منهم ، لكن هؤلاء ظلمة ومن اعان ظالماً بلئى به ، والله تعالى يقول ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٤)

وقد ظاهرهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب ، من أهل « سيس » والافرنج ، فنحن نرجوا من الله أن ينزلهم من صياميهم وهى الحصون - ويقذف قلوبهم الرعب . وقد فتح الله تلك البلاد ويغزوهم إن شاء الله تعالى ، فيفتح أرض

(١) اسم بلدة .

(٢) اسم بلدة .

(٣) اسم بلدة .

(٤) ١٢٩ : الأنعام .



العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه ، فأن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس ، وخرجت عن سن العادة ، وظهر لكل ذى عقل من تأييد الله لهذا الدين ، وعنايته بهذه الأمة ، وحفظه للأرض التى بارك فيها للعالمين بعد أن كان الاسلام أن

وكره العدو كرة فلم يلوعن ، وخذل الناصرون فلوليلودا على ، وتحير السائرون فلم يدروا من ، ولا إلى ، وانقطت الأسباب الظاهرة .

وأهبطت الأحزاب القاهرة ، وانصرفت الفئة الناصرة ، وتحاذلت القلوب المتناصرة ، وثبت الفئة الناصرة ، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة واستنجزت من الله وعده العصابة المنصور الظاهرة ، ففتح الله أبواب سماواته لجنوده القاهرة ، وأظهر على الحق آياته الباهرة ، وأقام عمود الكتاب بعد ميله ، وثبت لواء الدين بقوته وحوله ، وأرعم معاطس^(١) أهل الكفر والنفاق ، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق .

فالله يتم هذه الثقة تجمع قلوب أهل الايمان على جهاد أهل الطغيان ، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منمة كريم ، وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة ، ويشفى صدور المؤمنين من أعاديهم ، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآل وصحبه وسلم تسليماً .

قال المؤلف رحمه الله :

كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده ، لما رجعت من مصر فى جمادى الآخرة ، وأشاعوا انه لم يبق منهم أحد ، ثم لما بقيت

(١) بياض بالأصل .

تلك الطائفة اشتعلنا بالاهتمام بجهادهم ، وتعمد الذهاب إلى اخواننا
بحماة ، وتحريض الامراء على ذلك ، حتى جاءنا الخير بانصراف المتبقية
منهم ، فكملمته في رجب ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على أشرف الخلق ومحمد وآله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

فهرست الآيات

الآية	الصفحة
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم	٦٠
إذا جاءوكم من فوقكم	١٠٧
إذ يقول المنافقون	١١٣ ، ١١٢ ، ٥١
أفأرأيتم اللاتي والعزى	٥٥
أفأرأيتم ما كنتم تصدقون	٩٨
إن إبراهيم كان أمة	٢٤
إن يتبعون إلا الظن	٣٨
إن الله اشترى من المؤمنين	١٠٥
إن الحكم إلا لله	٧٩
إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان	٩٣
إننا برآء منكم وما تعبدون	٦٨
إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه	١١١
إنما المؤمنون الذين آمنوا	١٢٣ ، ١١٠
أم اتخذوا من دونه أولياء	٦٠
ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم	٢٤
ثم جعلناك على شريعة	٢٠
سأصرف عن آياتي الذين يستكبرون	٣٧
سيقول السفهاء من الناس	٤١
شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً	٥٩
فأخذه الله نكال الآخرة والأولى	٨٨
فلنسألن الذين أرسل إليهم	٧٦
فإمّا يأتينكم منى هدى	٣٧
فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون	٤٠

١١٩	فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون
٦١	في بيوت أذن الله أن ترفع
١١٦	قد يعلم الله المعوقين
٨٦	قد كان لكم آية في فتتين
١١٤	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
١١٥	قل لا ينفعكم الفرار
٧٩	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالآخرة
٦١	قل أمر ربي بالقسط
٣٨	كان الناس أمة واحدة
٥٩	كل ادعوا الذين زعمتم من دونه
١١٣ ، ١١١ ، ١٠٩	لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض
٥٤	لا تذرنا أهلككم ولا تذرنا وداً
١٢١ ، ١٠٩	لقد كان لكم في رسول الله
٨٩	لقد كان في قصصهم عبرة
٢١	لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم
٢٦	لا تقم فيه ابداً لمسجد أسس
١٠١	لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله
١٢٣	ليجزى الله الصادقين بصدقهم
٥٧	ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى
٦٢	مثل الذين ينفقون أموالهم
٦٠	من ذا الذي يشفع عنده
٧٦	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره
٣٥	من الذين ضل سعيهم
٧٩	هو الذي أخرج الذين كفروا
٢١	واذكروا نعمة الله عليكم
٢٣	واذكروا ما يتلى في بيوتكن
٢٣	وإن من شيعته لإبراهيم

٢٣ وإذا ابتلى إبراهيم ربه
٢٤ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا
٣٢٢ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث
٣٤ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا
٣٦ والنجم إذا هوى
٣٧ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه
٣٧ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا
٥٩ واسأل من أرسلنا من قبلك
٥٩ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا
٦٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة
٦٠ وكم من ملك في السماوات
٦٠ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى
٦٠ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن
٦٢ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله
٦٢ ويطعمون الطعام على حبه
٦٣ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب
٦٦ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم
١٠١ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله
١٠١ ومنهم من يلمزك في الصدقات
١٠٣ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا
١٠٣ واتبع ما يوحى إليك
١٠٤ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا
١٠٥ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
١٠٩ وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض
١١١ وإياي فارهبون
٣٧ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم
٤٠ وكذلك جعلناكم أمة وسطا

٥١	ومن أظلم ممن منع مساجد الله
٥٢	وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً
١١٣	ويستأذن فريق منهم النبي
١١٤	ولو دخلت عليهم من أقطارهم ثم سئلوا
١١٤	ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل
١١٦	وإذا لا تمتعون إلا قليلاً
١٢٧	وكذلك نولي بعض الظالمين
١٢٢	ولما رأى المؤمنون الأحزاب
١١٨	ولا يأتونالبأس إلا قليلاً
٩٤	وما محمد إلا رسول
٩٩	ومن يومهم يومئذ دبره
٢١	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله
٢٦	يا أيها النبي قل لأزواجك
٣١	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى
١٠١	يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان
١٠٣	يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين
١٠٥	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله
٤٦	يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات
٤٣	يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم
١١٧	يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا
١١٢	اليوم يشس الذين كفروا

فهرست الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
٣٧	أحبوا الله لما يغذيكم به من نعمه
٣٣	الخلافة ثلاثون سنة
٦١	اجعلتنى لله نداً
٣٢	إذا اجتهد الحاكم
١١٥	إذا وقع بأرض وأنتم بها
٢٧	اذكركم الله في أهل بيتي
٤٨	الدين النصيحة
٩٨	أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً
٥٤	أصبحنا على فطرة الإسلام
٤٦	اصنعوا طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم
٥٠	اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم
٥٠	اعيدكم بكلمات الله التامة
٢٧	إن الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ
٢٩	إن الصدقة لا تحل لمحمد
٦١	إن الله ينهاكم أن تحلفوا
٤٥	إن النائحة والمستمعة إليها
٤٥	إن الله اصطفى قريشاً من بنى كنانة
٤٦	إن الله انجى موسى
٧٨	إن الله يبعث لهذه الأمة
٣١	إنه شهد بدرأ
٥٨	إنه لا يأتي بخير
٢١	إنما الطاعة في المعروف
١١١	إنما شفاء العي السؤال
٥٣	أولئك إذا مات الرجل فيهم بنوا على قبره
١٣٣	

٥٥	اكثروا على من الصلاة
٢٤	ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه
١١١	اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق
٣٥	اللهم إني أحبه فأحبه
٢٦	اللهم هؤلاء أهل بيتي
٥٥	اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد
٢٦	اللهم صل على محمد وأزواجه
٤٤	أى الناس أشد بلاء ؟
١٥	إياكم والشح فإن الشح أهلك
٢٩	بعثت بالسيف بين يدي الساعة
٥٤	بعثنى رسول الله ﷺ فأمرنى
٣٤	تمرق مارقة على حين فرقة
٢٣	ستكون فتنة
٥٣	سيكون عليكم امراء
٩٩	شر ما فى المرء شح هالع
٥٢	صلاة الرجل فى المسجد
٥٢	صلاة الرجل مع الرجل
٩٥	عجباً لأمر المسلم
٢٩	كخ كخ أما علمت أن آل محمد
٥٧	كفارة النذر كفارة يمين
٢٥	مثل المؤمنين فى توادهم وتراحهم
٢١	من أطاعنى فقد أطاع الله
٢٣	من يعيش منكم بعدى
٢٥	المؤمن للمؤمن كالبنيان
٥٦	من نذر إن يطيع الله فليطعه
٦١	من حلف بغير الله فقد أشرك
٤٦	من اغتسل يوم عاشوراء

٥٢ من بنى لله مسجداً
٥٢ من تطهر في بيته فأحسن الطهور
٩٨ من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه
٥٦ ما من رجل يمر بقبر الرجل
٤٣ ما من رجل يصاب بمصيبة
٤٥ ما كان من العين والقلب
٤٩ المهدي ولد ابني هذا
٣١ لا يدخل النار واحد بايع تحت الشجرة
٣٢ لا يصلين أحدكم العصر إلا
٥٥ لا تجلسوا إلى القبور
٦١ لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد
٧٨ لا تطروني كما اطرت النصارى
٩٤ لا يقضى الله للمؤمن قضاء
٤٩ لو لم يبق من الدنيا إلا يوم
٤٥ لعن الله النائحة والمستمعة إليها
٥٤ لعن الله زوارات القبور
٥٢ لعن الله اليهود اتخذوا
٢٦ ليس المسكين بالطواف
٤٥ ليس منا من لطم الخدود
٤٧ والذي نفسى بيده لا يدخلون الجنة
١١١ وأى داء أدوى من البخل
٥٣ يصلون لكم فإن احسنوا فلكم
٤٦ يكون في آخر الزمان خليفة
٣٦ يهلك في رجلان

الأعلام

٧١	ابن النورى
٣	ابن سبعين
٣	ابن عربى
٣	ابن الفارض
٢٠	ابن القيم
٥	أبو زهرة
٤٨	أبو جعفر المنصور
٣٩	أبو عبد الله جعفر بن محمد
١٠	أحمد بن أبى الخير
٧٩	إسماعيل بن إبراهيم
٣٩	الثورى
٤	الحلاج
٤٨	الحسن بن على العسكرى
٤٥ ، ٤٣	الحسين بن على
٧١	الخليل إبراهيم
٤٢	جهم بن صفوان
١٢	جاكيز
١٢	الجمال بن يحيى بن الصيرفى
٩	زين الدين المقدسى
٣٩	زين العابدين
١٢	شمس الدين الدباهى
٣٥ ، ٣٤ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٧	على
٣١	عمر بن الخطاب
٣٩	على بن الحسين

٤٤	عطاء بن يسار
١٢	عدى بن مسافر
٤٨ ، ٤٧	المهدي
٨٥ ، ٧٩ ، ٧٥ ، ٧	المسيح ابن مريم
١٠	القاسم
٤٣	فاطمة بنت الحسين
٧٥	فرعون
٧٦	قارون
١٠	القاسم الأرملي
٧٦	موسى
٧٩	النجاشي
٧٠	يوسف النجار

البلدان والمواضع والفرق

١٢	بصرة
١٢	البحرين
٣٢	بنى قريظة
٩٧	الباطنية
١٢٦	تبزين
٨٧، ٧٧، ٩	التار
١٢	جیلان
٤١	اجماعة
٤١	الجبرية
٤٢	الجهمية
٣٤	حروراء
٢٨	خم
١٢	دمشق
٦٣	المدينة
٤٨	سامراء
١١٢	سلف
١٢٥	سيس
٧٤	الشام
١٩	الشيعة
١٢٧	العراق
٩	طبرستان
١٢	طرابلس
٩٢	الطائف
١٢	قبا
٤١	القدرية

٦٥	قبرص
٧٩ ، ٧١	قسطنطينية
٩٧	القرامطة
٧٧	القدس
١٢٧	القاهرة
١٢	مصر
١٢٦	مصرة عصرية
٤٢	المرجئة
٤١	المجوسية
٧٩ ، ٧٧	النصارى
٩٧	النصيرية
٩٧	الإسماعيلية